معوقات بناء نظرية عربية في علم الاجتماع

م. محمد حمود إبراهيم
مركز ابحاث الاهوار

الملخص
هي دراسة تحليلية – نقدية يحاول الباحث من خلالها تحديد أهم المعوقات التي يعتقد أنها تقف سداً منيعاً في وجه الباحثين العرب وتحول دون إتيانهم بنظرية مستقلة في علم الاجتماع. إن اعتماد الباحثين العرب في علم الاجتماع لنظريات ومناهج بحث صيغت في بلدان أجنبية (أوربا والولايات المتحدة) ومحاولتهم اعتمادها إطاراً نظرياً ومنهجياً لدراساتهم التي يقومون بها في بلدانهم جعل من علم الاجتماع في الوطن العربي يتقوقع على نفسه ولا ينطلق نحو الأمام منذ أكثر من ستون عاماً التي تمثل عمرهُ منذ ظهوره لأول مرة في أربعينات القرن العشرين. قسم الباحث دراسته إلى فصلين رئيسين،أهتم الأول منها بالإطار العام للدراسة متضمناً المشكلة والأهداف والأهمية واهم الصعوبات، فيما جاء المبحث الثاني من هذا الفصل ليستعرض ولادة ونشأة وتطور علم الاجتماع في أوربا وانتقاله الى الولايات المتحدة، مع الاحاطة بالظروف التي سبقت ورافقت هذه النشأة وكيف ظهرت مدارس إنكليزية وفرنسية وألمانية واميريكية لتعالج كل منها الظواهر والمشكلات الاجتماعية التي ظهرت لديها. وفي المبحث الثالث من هذا الفصل تم استعراض ظهور علم الاجتماع في الوطن العربي مستنسخا من المدارس الأوربية والاميريكية عندما أكمل الرعيل الأول من الاجتماعيين في مصر والعراق وسوريا ولبنان دراستهم في أوربا والولايات المتحدة وتكوينهم بعد عودتهم أقساما لعلم الاجتماع في بلدانهم. لقد حاول الباحث في هذا الفصل أن يحيط القارئ بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي كانت تحيط وتهيئ وتنتج علم الاجتماع في أوربا والولايات المتحدة المصدرة لنظريات علم الاجتماع والبلدان العربية المستوردة لها.ولقد جعلت عملية التصدير والاستيراد هذه من الوطن العربي مستهلكاً غير واع، وبالتالي فإننا نجد أن علم الاجتماع عندنا لازال في نقطة البداية ان لم يكن قبلها . وفي الفصل الثاني وضع الباحث مجموعة المشكلات المعقدة والمتداخلة التي أسماها بالمعوقات والتي يعتقد انها حالت وتحول دون تخلص علم الاجتماع لدينا من ربقة التبعية والتقليد والمحاكاة. لقد صب الباحث جم غضبه على الثقافة العربية التي وضعها في المرتبة الأولى لما تحمله من قنوات نكوص متمثلة بالأمية الفاحشة والتخلف الاجتماعي – الاقتصادي المركب والنظام السياسي الفاسد والمتخلف. وبعد الثقافة يأتي دور الفكر العربي وهو فكر مشوش وتابع وغير منتج. ثم يتناول الباحث مشكلة التبعية وارتباطها بالتبعية السياسية والاقتصادية والثقافية بل وحتى العسكرية التي تعاني منها مجتمعاتنا، ومن خلال هذه الدوامة يصبح الباحث والمبدع ليس في علم الاجتماع فحسب وإنما في أي مجال علمي أو فني أو رياضي...الخ هو تابع أيضا بإرادته أو من دونها. ومن خلال الثقافة التقليدية والفكر المشوش والإبداع المتلكأ ودوامة التبعية يظهر معوق أخر تحت عنوان عقدة العجز. لقد حاول الباحث في هذه الدراسة تحديد وتشخيص أسباب النكوص والتردي التي تميز واقع الإبداع في الوطن العربي مؤكداً على علم الاجتماع الذي عجز القائمون عليه منذ ستة عقود مضت وحتى اليوم من تحقيق ذاتهم، وبدلاً من أن يقوم علم الاجتماع بمسؤولياته تجاه المشكلات والظواهر المركبة في الوطن العربي أصبح هو في حاجة ماسة إلى من ينتشله من واقعه المتردي الذي هو فيه الآن.

Obstacles of constructing an Arab theory in sociology

Abstract

This is a critical analytical study through which the researcher aims at limited the main obstacles which he thinks to hinder the Arab researcher to construct an independent theory in sociology. The Arab researcher depend on the sociological theories and syllabuses born in foreign countries (such as Europe and USA), and try to take these as their theoretical frame and base for their studies in their own countries This has made sociology in the Arab countries stepping nearly in its same spot and never moves forward for the last 60 years which are the total years of its age as born in the forties of the last century.

The study is divided into two parts: the first section of the first part is concerned with the general frame of study including the problem of the research, aims, importance and the main obstacles; the second section deals with the beginnings of sociology in Europe and how it moved to America referring to all the circumstances before and during this movement. It also refers to the way in which the English ,French, German and American schools have tackled and cured the sociological phenomena and problems ; where as third section of the first part of the study shows the appearance of sociology in the Arab countries and how it copies from the European and American schools .One reason for this is the copying of the studies done by the first Arab generation of scholars in Egypt, Iraq and Syria after they completed their studies in Europe and America to finally come back home . In this part, an attempt is made to show the social, economic, political and cultural circumstances at the time of the beginning of sociology in Europe and America, and also those prepared for the process of copying these into the Arab countries. This export/ import process has made the Arabs not more than consumers and accordingly we find now sociology in the Arab countries still in its first place and its starting point.In the second part, a review of the complex problems (or obstacles) is presented, These are expected to be the reasons after keeping sociology in the Arab countries only a follower, repeater and conventional .The researcher is seriously upset with the Arab culture as one of the first reasons as it always calls us back with illiteracy and backwardness in all factors particularly the socio-economic and political factors. After culture comes the role of the Arab thought as vague and a follower unproductive thought The problem of sociology in the Arab countries as a "follower" is tackled with reference to how it is an output of the political, economic and cultural (and even military) independence. Due to this mess we find another obstacle which might be named "impotence complexity".Therefore, the final aim of the study is specifying and diagnosing the reasons behind the independence of, and accordingly the bad condition of, sociology in the Arab countries emphasizing that Arab sociologists kept important for the last six decades, up to now, to prove their selves. Sociology is supposed to find solutions to the complicated problems and phenomena, as part of its responsibility, but instead now it is a problem itself seeking a solution to get out of its independence and seriously bad condition.

الفصل الاول

الإطار العام للبحث

المبحث الأول :

أولا – مشكلة البحث:

تتمحور المشكلة التي يحاول الباحث مناقشتها في هذه الدراسة حول قضية غياب نظرية عربية مستقلة في علم الاجتماع، الأمر الذي يجعل من الباحثين والمهتمين بعلم الاجتماع في الوطن العربي يعتمدون نظريات ظهرت وتطورت في بلدان غربية " أوربا والولايات المتحدة "، ومحاولتهم تطبيقها اطارا نظريا للدراسات والبحوث التي يقومون بها لتحديد وتشخيص وحل المشكلات والظواهر الاجتماعية في بلدانهم. أن الباحث يعتقد أن هناك جملة من المعوقات التي تقف عقبة في طريق الباحث العربي وتحول دون إتيانه بنظرية عربية خالصة في علم الاجتماع. أن نظرية نابعة من صميم واقع المجتمعات العربية هي وحدها الكفيلة في وضع الأسس السليمة لإعادة وترميم البناء الاجتماعي في الأقطار العربية.

ثانيا – أهداف البحث:

يرمي الباحث من وراء هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف التي يمكن تلخيصها بالاتي:-

١- محاولة تحديد وتشخيص ومناقشة أهم القضايا التي وقفت ولازالت تقف معوقا حقيقيا في وجه الباحث العربي وتمنعه من الإتيان بنظرية عربية في علم الاجتماع .

٢- الكشف عن الكثير من الحقائق الزائفة التي وقفت سدا منيعا، ليس بوجه الباحثين في علم الاجتماع فحسب، وإنما بوجه الباحثين في مختلف العلوم الإنسانية والطبيعية في الوطن العربي، مما جعل مسيرة العلم تكبو وتتعثر على الدوام في مختلف الأقطار العربية. وليس أدل على ذلك من تميز الباحث العربي وإبداعه عندما ينتقل إلى خارج الإطار العربي.

٣- كسر الحاجز النفسي الذي لازال يقف معوقا هو الآخر أمام عمليات النقد والتحليل الموضوعي، العلمي والدقيق للنمط الثقافي الذي يؤثر أيما تأثير في مجمل أنماط البناء الاجتماعي العربي.

٤- حث وتحفيز باحثين آخرين على مناقشة مواضيع مماثلة، يمكن أن تشكل قاعدة نقدية لأوضاع علم الاجتماع، ليس من اجل الترف المعرفي، أو إسقاط فرض والتخلص منه، وإنما المحاولة الجادة لتعديل وتقويم مسيرة علم الاجتماع في الوطن العربي ووضعه في جادة الصواب. لقد صارت الحكومات والمجتمعات في العالم تعتمد اعتمادا كبيرا على نظريات علم الاجتماع وقوانينة في عملية التنمية والتقدم وفي محاولة تجاوز مختلف المشكلات والظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تظهر في أي وقت وتخلف ورائها نتائج غير محمودة.

ثالثا – أهمية البحث:

تأتي أهمية هذه الدراسة من خلال أهمية الأهداف التي تم تحديدها، التي يعتقد الباحث انها ضرورية ومهمة في المرحلة ألراهنه التي تمر بها المجتمعات العربية. ان الكثير من الباحثين والدارسين والمهتمين في علم الاجتماع العربي يعلمون وبلا أدنى شك بان هذا العلم يعاني من مشكلات حقيقية وان العلاج يجب ان يحدد له قبل ان يحدد من خلاله للمشكلات العربية. من هنا وجد الباحث ان هذا الموضوع له أهمية فائقة وكبيرة توجب دراسته ومناقشته.

رابعا – صعوبات البحث:

كان هذا الموضوع يشغل بالي منذ بداياتي الأولى مع علم الاجتماع، إذ كان التساؤل الذي كثيرا ما كنت اواجه به نفسي وأساتذتي وزملائي هو لماذا تبنى الاجتماعيين في البلدان العربية ولازالوا لنظريات صيغت في ألمانيا وأمريكا وفرنسا ومحاولتهم تطبيقها في دراسة المجتمعات العربية ؟ وكنت مثلا أقول لماذا اعتمد علي الوردي نظريات روبرت ماكيفر اطارا نظريا له في معالجته لمشكلات وظاهرات اجتماعية في العراق ؟ ثم كنت أجد عشرات المقابلات والمقالات التي كان يدافع بها الوردي عن أرائه في فرضياته الثلاثة المعروفة ، محاولا ان يرد من خلالها على منتقديه ومعانديه . ولقد عرفت حينها ان القصور لم يكن في هذه الفرضيات التي كانت من الممكن ان تصبح نظريات،إلا ان جبروت المعوقات هو الذي اجبر الوردي على اللجوء إلى علماء اجتماع غربيين من اجل إرضاء عقدة العجز التي تسيطر على العقل العربي وتصور له عدم جواز التعدي أكثر من حالة الاعتماد على الآخر "الغربي"،إلا ان سيل القذائف ظل ينهمر على الرجل من محيطة العلمي " المحلي بشكل خاص" دون اعتماد التحليل الموضوعي والدقيق في اغلب الأحيان لقد وضعت هذا المثل البسيط لكي أشير من خلاله إلى تعقد المشكلة وتعدد اطرها ، ولا بين مدى الصعوبة التي تعترض طريقي إذا ما حاولت التحرش بجبل المعوقات هذه .

المبحث الثاني

مقارنة الظروف الممهدة لنشوء علم الاجتماع في الغرب وفي الوطن العربي "

ظهر علم الاجتماع في أوربا وبالتحديد في فرنسا على يد اوكست كونت (١٧٩٨ -١٨٥٧) وإذا كانت رؤى كونت قد نضجت مع سان سيمون، فان كونت التلميذ استطاع ان يتفوق على أستاذه ويبرع في تأسيس علم مستقل بعدما كان مجرد فكر اجتماعي. ولم يتضح هذا الاستقلال إلا في الفترة الزمنية المحصورة بين ١٨٥١

و ١٨٥٤ عندما أصدر مؤلفة الموسوم (مذهب في السياسة الوضعية) والذي حاول فيه تطبيق آراء علم الاجتماع في حل المشكلات الاجتماعية. من هنا يتضح ان علم الاجتماع تبلور وبرز كعلم مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لكن هل جاء ظهور علم الاجتماع في أوربا من الفراغ ؟ أو هل كانت هناك فترة انقطاع حضاري طويلة ثم ظهر هذا العلم فجأة من بين الركام ؟ وإذا كان الجواب على هذين السؤالين بكلا فمن أين يمكننا ان نبدأ في عملية التحري عن نشوء وتطور الظروف في مختلف مجالات الحياة التي مهدت لظهور علم الاجتماع ؟ أي ما هو الواقع بكل تراكماته الذي أفضى إلى نشوء وتطور هذا العلم في أوربا دون سواها ؟وفي رأيي فإننا يجب ان نعيد قراءة التأريخ الأوربي منذ العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، ففي العشرة أعوام الأخيرة هذه ظهرت حركة الاستكشافات التي قادها الثلاثة دي كاما، ماجلان، وكريستوفركولمبس ولقد كانت هذه الاستكشافات تنبأ ببداية عصر جديد في أوربا نفضت فيه آخر ذرات تراب القرون الوسطى. ومابين ١٤٩٠ و١٨٥٠ هناك ثلاثة قرون ونصف، تم فيها تحقيق إنجازات بشرية عظيمة كاكتشاف قوة البخار والثورة الصناعية، وشيوع مظاهر التجارة الحرة وظهور نظريات وقوانين مميزة كقانون الجاذبية والنظرية النسبية ثم اكتشاف الكهرباء. وفي هذه الفترة أيضا تم تحرير الإنسان هناك من ربقة الكنيسة والقبيلة وانتشرت الفلسفات والأفكار التي نادت بالمساواة والعدالة والقضاء على الفقر والظلم، ولا بد ان نشير أيضا إلى ثلاث ثورات عظيمة ساهمت في الإسراع بعملية التطور هذه، الثورة الشعبية في فرنسا وأيضا الحركة الفلسفية في ألمانيا التي قادها نيشة وهيكل ثم كارل ماركس وفي بريطانيا برزت مبادئ علم الاقتصاد على يد آدم سمث. وكانت هذه الإنجازات ترافقها حركة إبداع أدبي و فني ساهمت في صياغة ذوق المواطن الأوربي. كذلك تم اكتشاف الكهرباء وظهرت أيضا الطبقة الوسطى (البرجوازية) كطبقة رائدة في المجتمع والدولة وممهدة للقضاء على آخر مراحل الإقطاع وبروز الرأسمالية بدلا عنها .

لقد كانت المجتمعات الأوربية تحث الخطى للحاق ببعضها، وكانت المنافسات تتحول إلى صراعات دموية هدفها تحقيق ألذات والحصول على اكبر المكتسبات حتى لو كانت على حساب الشعوب الضعيفة التي تحتلها. ولان الدولة العثمانية كانت تحتل معظم الجزء الشرقي من أوربا فان حركات العصرنة والحداثة والتطور والنمو كانت تحدث في الأجزاء الغربية وبالتحديد " إنكلترا، فرنسا، ألمانيا " ثم الولايات المتحدة الأمريكية والتي هي نتاج من نتاجات الحضارة الأوربية وبدرجة امتياز.ولم تكن الثلاثة قرون والنصف المشار إليها في تاريخ أوربا فترة مثالية بكافة جوانبها، وإنما كانت هناك أيضا محطات كثيرة ساهمت في ظهور مشكلات اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية أدت من بين ما أدت إليه إلى تكريس الثروة في أيدي طبقات محددة وانتشار الرأسمالية بأبشع صورها واستغلال المجتمعات الفقيرة التي وقعت تحت سيطرتها أبشع استغلال تمثل في سلب ثرواتها وتكريس معاناتها والمساهمة في بناء أنظمة حكم ظالمة تجير مآسي شعوبها لمصلحة المستعمر مقابل رضاه ومباركته لها ومحافظته على بقائها. ومثلما أفضت المشكلات التي واجهت المستعمرين الأوربيين من قبل المجتمعات التي استعمروها إلى بروز الانثروبولوجيا كعلم، سمي في حينه " بالعلم سيئ السمعة " لأنه كان يساهم في إيجاد الطرق الأكثر خبثاً التي كان يستخدمها المستعمرون للإيقاع بضحاياهم وبصورة اخص بالجانب الثقافي، فأن هناك مجموعة من ألازمات العاصفة التي واجهت المجتمع الأوربي خلال فترة ما قبل ظهور علم الاجتماع، أزمات سياسية واقتصادية وثقافية وأخلاقية، وبالمجمل أزمات اجتماعية معقدة. وبالقدر الذي كانت فيه هذه ألازمات مؤلمة وذات نتائج سلبية، إلا انها ومع كمونها وتراكمها في الواقع الاجتماعي الأوربي ساهمت في بروز علم الاجتماع بعد ان عجز المفكرون والفلاسفة والساسة والاقتصاديين عن إيجاد حلولاً لهذه المشكلات.

لقد ظهر علم الاجتماع في أوربا ليس نقلاً أو استنساخاً لعلم اجتماع آخر موجود في بقعة ما من العالم، وإنما كان ظهوره حاجة ضرورية لمحاكاة الواقع الأوربي المعاش. لقد ظهر هذا العلم حاملاً معه نظريته المستقلة بيد، ومنهجه الذاتي باليد الأخرى، ظهر وليست هناك معوقات معقدة تقف في طريقه وتمنعه من الانطلاق. لقد صيغت النظريات انعكاساً للواقع وتم تصميم المناهج وطرق البحث نتيجة التجربة والخطأ. ولقد حاول كل فريق دراسة مجتمعة قبل الخوض في دراسة المجتمعات الأخرى،لذلك نجد مدرسة فرنسية قادها كونت ودوركهايم اهتمت بالحقائق الاجتماعية دراسة وتحليلاً،ومدرسة ثانية ذات نزعة براغماتية في كل من بريطانيا وأمريكا، في الوقت الذي ظهرت فيه المدرسة الثالثة التي قادها كل من ماكس فيبر وكارل ماركس في ألمانيا اهتمت وأكدت على وجوب ربط الواقع الاجتماعي بالمحركات الاقتصادية التي تساهم في إيجاده.

لقد ظهرت خلال مائة عام من عمر علم الاجتماع في أوربا مدارس عديدة وعلماء كثيرون، من أبرزهم كونت ودوركهايم من فرنسا، وكارل ماكس وماكس

فيبر وجورج زيميل من ألمانيا، سبنسر من إنكلترا، بتريم سوروكن من روسيا، باريتو من ايطاليا،كارل مانهايم من المجر، تالكوت بارسونز من الولايات المتحدة، وكذلك بوبر ، ليفي – شتراوس ،غورفيتش، بورديو .. الخ. لقد أنتج هذا العلم طوال قرن من الزمان – ١٨٥٠ سنة ظهوره في أوربا و ١٩٥٠ سنة استنساخه ونشره في الوطن العربي – العديد من النظريات، كما انه ظل يجدد مناهجه وطرق وأدوات بحثه باستمرار. ولقد ساهمت هذه الإنجازات العظيمة لعلم الاجتماع هناك في ترصين قاعدته العلمية وتقديم نفسه علماً موضوعياً دون خجل أو ارتباك مما جعله ينال ثقة المجتمعات والحكومات على حد سواء التي وجدت فيه القناة الأكثر حيوية لدراسة المجتمع وتحليل ظواهره، وتفسير مشكلاته، ووضع الخطط العلمية والموضوعية لتحقيق أعلى درجات التقدم المجتمعي وإذا كان هذا الوضع الذي استند عليه علم الاجتماع في أوربا حين ظهوره، فأن الوضع كان مختلفاً تماماً عندما ظهر هذا العلم في الوطن العربي، لحظة الظهور تأخرت مائة عام عن أوربا وكذلك فأن فترة التمهيد كانت طويلة جداً. فمع العام الذي حددناه لانطلاق أوربا عبر استكشافاتها الجغرافية عام ١٤٩٠، كان هذا العام ايضاً تأريخاً لخروج آخر عربي مطروداً غير مأسوفاً عليه من أسبانيا. لكن هذا التأريخ يمتد تراجعياً إلى ما هو ابعد من ذلك، إلى عام ١٢٥٨ تأريخ سقوط بغداد، أو ربما إلى بداية الألفية الثانية حيث الحروب الصليبية وعجز الأمة وهي مشتتة عن صدها. وحتى إذا كنا أكثر مرونة واتفقنا على ان سقوط بغداد عام ١٢٥٨ هو بداية الانحدار فمع ذلك تبدو مدة زمنية طويلة تصل إلى سبعة قرون. سبعمائة عام بالكمال والتمام تفصل بين ١٢٥٨- ١٩٥٨بين عام التردي والدخول في النفق المظلم الطويل وبين عام بداية انتشار علم الاجتماع في الدول العربية. سبعة قرون من الاحتلال والتبعية والنكوص والتردي على كافة الجوانب والأطر. سبعة قرون من الاجترار الثقافي ومن العقم الفكري. سبعة قرون من الفقر والجوع والمرض والأمية . سبعة قرون من الإقطاع والظلم الاجتماعي وغياب الحرية وانعدام الديمقراطية وتقييد بل تكبيل حريات الإنسان. سبعة قرون من الانغلاق المعرفي. ولقد ظل المجتمع العربي يهضم سياسات المحتل العثماني والفارسي والإنكليزي والهولندي والبرتغالي والأسباني والفرنسي والإيطالي.

ولقد انتقل الفكر العربي تأريخياً عبر نماذج عديدة كان أهمها (الشاعر – الحكيم والفارس) في العصرالجاهلي ، و (الفقيه – الصحابي – المجاهد) في صدر الإسلام و (الطبيب الفيلسوف) في العصر العباسي ثم ارتبكت صورة المفكر العثماني وأصبح اقرب للموظف الديني واخيراً في عصر النهضة ظهر نموذج(الصحافي المندهش بالحضارة الغربية) ثم ومنذ الخمسينات ظهرت نماذج (المفكر –المجتهد اسلامياً) و(المفكر الليبرالي)و(المفكر الماركسي).وهناك القطيعة الطويلة التي فصلت بين نموذج (الطبيب – الفيلسوف أو المؤرخ) في العصر العباسي وبين النماذج الحديثة، أمد هذه القطيعة تتراوح بين ٧٠٠ إلى ٩٠٠ عام وهي مدة زمنية طويلة جداً خضع فيها الفكر العربي للقمع والاضطهاد داخلياً وللسحق والمسخ خارجياً. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ووفقاً لاتفاقيات سايكس – بيكو تم توزيع الوطن العربي بين الحليفتين المنتصرتين بريطانيا وفرنسا على الرغم من ان الوطن العربي لم يكن في صف المحور بل وقاتل الى جانب الحلفاء. لكن الضرورة اقتضت ان تقع كل من العراق والأردن وفلسطين وإمارات الخليج واليمن ومصر والسودان تحت الاحتلال البريطاني في الوقت الذي تقع فيه كل من لبنان وسوريا ودول المغرب العربي وجيبوتي والصومال تحت الاحتلال الفرنسي. ومابين عامي ١٩١٨ – ١٩٣٩قامت ثورات شعبية في مختلف المجتمعات العربية وكانت تنبئ بزيادة الوعي وطموح المواطن العربي لتحقيق ذاته المتمثل بالاستقلال. إلا ان الظروف التي رافقت الحرب العالمية الثانية وابتلاء الوطن العربي بظاهرة الانقلابات العسكرية أنتج ظاهرات جديدة. لقد تمكن العسكريون من السيطرة على مقاليد الحكم في العديد من الدول العربية بعد ان استطاعوا من سرقة الوعي الجماهيري الساذج وتحويله إلى قوة يدعمها. ومع ظهور البوادر الأولى لعلم الاجتماع في الوطن العربي كان كل من العراق ومصر تحت الوصاية الانكَليزية مع وجود أنظمة ملكية فيها وكل من سوريا ومصر تحت الوصاية الفرنسية ومع انتهاء عقد الخمسينات كانت الجمهوريات العسكرية تقيم أنظمتها في جميع هذه البلدان.

لقد أثبتت هذه الجمهوريات عجزها عن بناء أنظمة جمهورية حقيقية ذات قواعد تشريعية، وكان الحاكم ما ان يصل إلى السلطة حتى يلتصق بالكرسي بالشكل الذي لا يمكن الفصل بين الاثنين (الكرسي والحاكم) وكانت الشعارات البراقة والأفكار الأسطورية الخرافية بالإضافة إلى تكريس نظرية المؤامراة واعتماد القضية الفلسطينية كقضية مركزية (فقط بالشعارات) قد ساعدت هؤلاء الحكام، تحت يافطات الوحدة العربية وحرية الفكر واشتراكية الاقتصاد، من ان يحققوا مشاريعهم الرجعية وان يخفوا صور عجزهم حتى عن وضع خطط علمية يمكن الاعتماد عليها لوضع اسس تنمية اقتصادية وسياسية وثقافية وفكرية، لو انطلقت في خمسينات القرن الماضي لكان لدينا الآن تراكم

عظيم في كافة المجالات. ولقد تحولت الجمهوريات العسكرية بقدرة قادر إلى جمهوريات وراثية ولم يخجل هؤلاء عن تهيأة أبنائهم لخلافتهم، والتجارب كثيرة ولا نحتاج هنا لتوضيح أكثر والا فأن الأسماء والأنظمة معروفة عند ابسط الناس. مع شروق ألفية ثالثة على العالم يخرج العرب بنموذج " الجمهورية الوراثية " وهو نموذج يعود لنا وحدنا حق براءة اختراعه وقد تم شراء براءة هذا الاختراع من قبل المخترع العربي ليتم تطبيقه في كل من كوريا الشمالية وكوبا. اما أنظمة الحكم المتمثلة بالمشيخات والأمراء والسلاطنة وأصحاب الجلالة الملوك فلا يختلف أمرهم عن أقرانهم المشار اليهم انفاً الا من جانب واحد فقط هو تبجح أولئك بشعارات التحرير ، وجهر هؤلاء بالعجز وضرورة الاعتماد على الغرب في كل صغيرة وكبيرة .

المبحث الثالث

ولادة وانتشار علم الاجتماع في الوطن العربي

أُنشأ أول قسم لعلم الاجتماع في جامعة القاهرة كعلم مستقل لذاته عام ١٩٢٥، ثم انشأ قسم للاجتماع في الجامعة الاميركية في القاهرة عام ١٩٣٠ ثم أصبح فيما بعد كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة حلوان، وقد توالت عمليات إنشاء أقسام للاجتماع في الجامعات المصرية التي اكتملت تقريباً منذ عام١٩٧٥ [١]. أما في العراق فقد انشأ أول قسم لعلم الاجتماع بصورة مستقلة مع بداية الخمسينات من القرن العشرين ضمن أقسام كلية الآداب في جامعة بغداد[٢]. وقد احتوى هذا القسم في تطوره فرعا الخدمة الاجتماعية والانثروبولوجيا، ثم انشأ مع بداية السبعينات قسم الاجتماع في جامعة صلاح الدين، ثم قسمين للخدمة الاجتماعية في جامعة الموصل عام ١٩٨٥ وفي جامعة القادسية عام ١٩٨٩ تحولا فيما بعد إلى أقسام للاجتماع، وبعد عام ٢٠٠٣ انشأ أول قسم للانتروبولوجيا في الجامعة المستنصرية. أما في سورية ولبنان فقد انشأ أول قسم للاجتماع في الجامعة السورية ومثله في الجامعة الاميريكية في بيروت عند نهاية الأربعينات[٣]. ويظهر لنا من هذا العرض ان أربعة أقطار عربية كانت رائدة في إنشاء أقسام أكاديمية لعلم الاجتماع في جامعاتها هي مصر والعراق وسوريا ولبنان ، وقد امتدت فترة الولادة هذه لمدة خمسة وعشرون عام (١٩٢٥ -١٩٥٠) وهي فترة طويلة جدا تشير من بين ما تشير إليه إلى عسر هذه الولادة وتعثرها.

لقد كان موعد ولادة علم الاجتماع في أقطار المغرب العربي متأخرا أكثر حتى عن زميلاتها الأقطار الأربعة المشار إليها إذ تم إنشاء أول معهد للسوسيولوجيا في المملكة المغربية عام ١٩٦٠ وكان ذلك بمساعدة اليونسكو[٤]. ومع بداية الستينات انشأت أقسام للاجتماع في الجزائر وتونس ثم انشأت في ليبيا وفي وقت مزامن تم ذلك في الأردن. أما السودان فقد سبقت هذا الأقطار عندما تم تأسيس قسم لعلم الاجتماع هناك في عام ١٩٥٨ في الوقت التي تأخرت السعودية في ذلك حتى عام ١٩٧٣ واليمن (الشمالي والجنوبي سابقا) في نهاية السبعينات. وقد أدمجت أقسام الاجتماع ضمن أقسام الخدمة الاجتماعية منذ بداية ومنتصف عقد السبعينات في معظم أقطار الخليج العربي. بينما ظلت أقطار عمان وموريتانيا وجيبوتي والصومال بدون أقسام علمية للاجتماع في جامعاتها حتى نهاية الثمانينات[٥].

ويمكننا ان نصوغ مجموعة من الملاحظات حول ظهور علم الاجتماع في الوطن العربي وهي كالأتي:-

١- ان هناك تباينا كبيرا في فترات ظهور علم الاجتماع في الأقطار العربية، فما بين ظهوره في مصر وظهوره في كل من العراق وسوريا ولبنان مدة تصل إلى عشرون عاما. كما ان هناك سبعون عاما من التباين بين سنة ظهوره في مصر لأول مرة عام ١٩٢٥ وتأخر بعض الأقطار العربية التي لم يظهر فيها قبل العقد الأخير من القرن العشرين.

٢- لم ينشا علم الاجتماع مستقلا لذاته في الوطن العربي، بل كان تابعا للفلسفة بالدرجة الأولى، وللقانون وعلم النفس والآداب بالدرجة الثانية. ولم تقتصر هذه التبعية على النشأة فقط بل استمرت طويلا، وليس غرابة في ذلك إذا ما عرفنا بان رواد علم الاجتماع في مصر من أمثال علي عبد الواحد وافي وعبد العزيز عزت والسيد محمد بدوي كانوا قد حصلوا على شهادات دكتوراة في الفلسفة منذ بداية عقد الثلاثينات من القرن العشرين. فقسم الاجتماع الذي انشأ في جامعة القاهرة في عام ١٩٢٥ كقسم مستقل لذاته أعيد دمجه مع الفلسفة في عام ١٩٥٦ فهل هناك أكثر من هذا الدليل على تعثر مسيرة العلم منذ بدايته إذ ما معنى ان تذهب ثلاثون عاما من العمل الفوضوي ثم يعاد دمجه مع الفلسفة. وقد تكرر هذا الوضع مع معهد السوسيولوجيا في المملكة المغربية والذي أنشأته اليونسكو في عام ١٩٦٠ ليعاد دمجه في العام ١٩٧١ مع الفلسفة وعلم النفس بكلية الآداب في جامعة فاس. ولا تختلف تجربة نشأة معهد العلوم الاجتماعية للدراسات العليا في مصر والذي كان تابعا للفلسفة ثم استقل عام ١٩٥٦ ثم أعيد دمجه مع الفلسفة مجددا وسمي بمعهد الدراسات الفلسفية والاجتماعية. ولم يكن العراق بمعزل عن هذه الظاهرة وان كان بشكل اقل فأحد رواد علم الاجتماع فيه مثلا عبد الجبار عريم كان يحمل اختصاصا في العلوم الجنائية كما ان معظم الرواد الآخرين لم تكن خلفياتهم العلمية والتي سبقت

تخصصهم في علم الاجتماع فيما بعد سوى خلفيات في الآداب والقانون.

٣- اعتماد الأقطار العربية على عملية الدمج غير المبررة بين علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية والانثرويولوجيا وهذا ما نشاهده بصورة جلية في كل من مصر والعراق وسوريا ولبنان وهي الأقطار التي مثلت الريادة ثم في جميع الأقطار العربية والتي تبعتها فيما بعد إذ ظلت عملية دمج هذه العلوم مستمرة وخاصة في أقطار الخليج العربي.

كما إنني أجد فائدة في استخلاص مجموعة من الملاحظات التي طرحها الدكتور هادي صالح في اطروحته للدكتوراه عام ١٩٩٠ والتي يمكن ان ألحضها بالاتي [٦]:-

١- امتازت أعمال الرواد العرب بقلة الدراسات الميدانية إذ اقتصرت في اغلبها على دراسات الساعاتي وسيد عويس من مصر . ٢- كذلك فان الاتجاه النقدي اقتصر على محاولات قليلة تمثلت بكتابات الوردي والطاهر من العراق والوافي والخشاب من مصر.

٣- حظيت موضوعات علم الاجتماع الريفي والبدوي باهتمام بارز خلال الخمسينيات والستينيات والتي تمثلت عند المصرين بكتابات حامد عمار وعلي فؤاد في حين ظهرت عند العراقيين في كتابات عبد الجليل الطاهر وعبد الجبار عريم. ولقد فرضت هذه الموضوعات نفسها آنذاك وجاءت محاولة للاسهام بالنهوض بالمجتمع الريفي أو في توطين البدو .

٤- لقد كان هناك تباينا في العطاء العلمي عند جيل الرواد العرب، فبعضهم كان كثير العطاء ومنهم الوافي من مصر والطاهر من العراق وبعضهم الأخر كان قليل العطاء.

٥- لقد تلقى الرواد العرب تعليمهم في اميريكا وأوربا حيث كان الاهتمام منصبا هناك على دراسة المشكلات الاجتماعية التي أفرزتها الحرب العالمية الأولى والثانية والدورة الاقتصادية.

٦- لم يكن هناك اتجاه خالص، فحالة التداخل كانت قائمة بين الاتجاهات وأما المناهج المستخدمة غالباً ما كانت تجمع بين الاتجاهين التاريخي والمقارن.

ولابد لي ايضا ان استعرض مجموعة ملاحظات أخرى حول نشوء علم الاجتماع في الوطن العربي وجهود الرواد المؤسسين وهذه المرة استقيها من الدكتور عبد الباسط عبد المعطي وهي كالأتي[٧]:-

١- ان البدايات الأولى للمنتج السوسيولوجي أتت على أيدي غير متخصصين فأثرت تخصصاتهم في أعمالهم وتوجهاتهم نحو هذا العلم فقد مهد لنشأة علم الاجتماع في مصر والعراق متخصصون في الفلسفة والقانون والاقتصاد والتاريخ.

٢- حتى بعد إنشاء أقسام لعلم الاجتماع في مصر والعراق وسوريا،فان الأساتذة الأوائل الذين قاموا بأمور التدريس كانوا من تخصصات متباينة منها الفلسفة والأدب العربي والإنكليزي والتاريخ والجغرافية والقانون والزراعة.

٣- ظل هؤلاء الرواد على صلة بالجامعات الأجنبية التي تعلموا فيها وكان معظم نتاجاتهم أما ترجمات أو مؤلفات معتمدة على نفس المراجع والمصادر التي تعلموا من خلالها وبإيجاز فقد تمثل هذا الجهد في النقل من الفكر السوسيولوجي الأوربي الذي تعلموا من خلاله .

٤- اهتم الرواد بإبراز طابع العلم وأهميته كما انشغلوا بالتدريس ونادرا ما تعدى تأثير علم الاجتماع أسوار الجامعات وبالتالي لم يقم بدوره المجتمعي البحثي الا بعد منتصف الخمسينات وبإعداد من الدراسات المحدودة بالعواصم الكبرى.

٥- وجود صراع في كتابات جيل الرواد وتوجهاتهم بين قضايا التراث وقضايا العلم الحديث وقد انعكس هذا الأمر على أعمالهم التي أتت موزعة بين هذا الانتماء وذلك الاهتمام .

جدول رقم (١) يوضح عينة من عشرين مختص في علم الاجتماع من جيل الرواد في مصر والعراق وللفترة من عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٥٩

	الاسم	الشهادة والاختصاص	البلد الذي اكمل فيه الدراسة	سنة الحصول على الشهادة	البلد
	علي عبد الواحد وافي	دكتوراه فلسفة	فرنسا	١٩٣١	مصر
	عبد العزيز عزت	دكتوراه فلسفة	جامعة القاهرة – مصر	١٩٤٣	مصر
	السيد محمد بدوي	دكتوراه فلسفة	فرنسا	منتصف الأربعينات	مصر
	عبد الجبار عريم	دبلوم عالي في العلوم الجنائية	معهد العلوم الجنائية – القاهرة	١٩٤٦	العراق

	حسن الساعاتي	دكتوراه	لندن	١٩٤٦	مصر
	مصطفى الخشاب	دكتوراه	جامعة القاهرة	١٩٤٨	مصر
	حسن شحاته سعفان	دكتوراه	فرنسا	١٩٤٨	مصر
	علي الوردي	دكتوراه علم الاجتماع	جامعة تكساس – اميريكا	١٩٥٠	العراق
	علي احمد عيسى	دكتوراه في الانثرويولوجيا	لندن	١٩٥٠	مصر
٠	عبد الجليل الطاهر	دكتوراه – علم الاجتماع	شيكاغو – اميريكا	١٩٥٢	العراق
١	حامد مصطفى عمار	دكتوراه - الانثرويولوجيا	لندن	١٩٥٢	مصر
٢	احمد الخشاب	دكتوراه - الانثرويولوجيا	لندن	١٩٥٢	مصر
٣	علي فؤاد احمد	دكتوراه علم الاجتماع الريفي	لندن	١٩٥٢	مصر
٤	حاتم الكعبي	دكتوراه علم النفس الاجتماعي	شيكاغو – اميريكا	١٩٥٤	العراق
٥	احمد ابو زيد	دكتوراه	جامعة اوكسفورد	١٩٥٤	مصر
٦	شاكر مصطفى سليم	دكتوراه – الانثرويولوجيا	لندن	١٩٥٥	العراق
٧	سيد عويس	دكتوراه – علم الاجتماع الجنائي	اميريكا	١٩٥٦	مصر
٨	محمد طلعت عيسى	دكتوراه	جامعة السوربون – فرنسا	١٩٥٨	مصر
٩	عبد المنعم شوقي	دكتوراه	اميريكا	١٩٥٨	مصر
	حنا رزق	دكتوراه	اميريكا	١٩٥٩	مصر

الفصل الثاني

معوقات الابداع

سوف نناقش في هذا الفصل أهم المعوقات التي يعتقد الباحث انها تشكل سدا منيعا ، لابد من ردمه أو اجتيازه على الأقل إذا ما أردنا النهوض بعلم الاجتماع في الوطن العربي وتهيئته لإنتاج نظريات اجتماعية خاصة به ، نابعة من واقعه ، وايضا في محاولة فك رموز مشكلاته وظاهراته المعقدة .

اولاً - الثقافة العربية

تعني الثقافة في نظر علماء الاجتماع جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم لا بالوراثة، ويشترك أعضاء المجتمع بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون والتواصل، وتمثل هذه العناصر السياق الذي يعيش فيه أفراد المجتمع . وتتألف ثقافة المجتمع من جوانب مضمرة غير عيانية مثل(المعتقدات، والآراء، والقيم) التي تشكل المضمون الجوهري للثقافة، ومن جوانب عيانية ملموسة مثل (الأشياء، والرموز، أو التقانة) التي تجسد هذا المضمون [٨]. وتتشكل الثقافة من مجموعة معقدة تشتمل على المعرفة و العادات والتقاليد والأفكار والقيم والمعتقدات والفنون والاخلاق التي تميز مجتمع ما عن غيره من المجتمعات إلى حد ما والتي يكتسبها الانسان من خلال عضويته في هذا المجتمع [٩]. فمنظومة الأفكار هي التي تحدد ما هو (مهم ومحبذ ومرغوب) في المجتمع، وهذه الأفكار المجردة أو القيم هي التي تضفي معنى محدد، وتعطي مؤشرات إرشادية لتوجيه تفاعل البشر . اما المعايير فهي قواعد السلوك التي تعكس أو تجسد القيم في ثقافة ما. وتعمل القيم والمعايير سويا في تشكيل الأسلوب الذي يتصرف به أفراد ثقافة ما إزاء ما يحيط بهم [١٠]. وتتفاوت القيم

والمعايير وتختلف اختلافا بينا من ثقافة إلى أخرى وقد تتناقض القيم في المجتمع أو الجماعة الواحدة.

وتلعب الثقافة على هذا الأساس دورا مهما في الحفاظ على القيم والمعايير في أي مجتمع، وهذا بالطبع ينطبق على مجتمعنا العربي الكبير(موضوع الدراسة) والمجتمعات الفرعية فيه والمجتمعات الأكثر خصوصية وتمايزا عندما نقسم أو نصنف المجتمع الكبير إلى مجموعات من المجتمعات المكونة له . غير ان الثقافة تفسح المجال ايضا للابتكار والتغيير أو تقف معوقا دون ذلك. ان نظرة متفحصة للواقع الثقافي في الوطن العربي تساعدنا في مشاهدة ثقافة سائدة تغطي مساحات شاسعة من الجغرافية العربية تدعوا إلى التعلق بالماضي والانصهار في بوتقته لان فيه الخلاص، وبذلك فان هذا التيار وهو

السائد يجعل من ثقافته صمام أمان للحفاظ على القيم والمعايير حتى لو كان بعضها غير فعال وغير مناسب. ان هذا الوضع يساعد الثقافات الفرعية والثقافات المضادة التي ترفض القيم والمعايير السائدة في المجتمع في إنتاج أراء واتجاهات بديلة للثقافة المهيمنة ان عملية الصراع بين التيارين هي التي تساعد التيار الثاني في تنشيط ذاته والقيام بعملية الإنتاج المشار إليها . لكن هل يحدث التأثير بصورة مباشرة؟ وهل تكون النتائج كبيرة ومؤثرة ؟ ان الواقع العربي وطوال الفترة الممتدة من بدايات القرن الماضي وحتى الآن لا تشير إلى أحداث تغيير جذري في الثقافة العربية، فعلى الرغم من كافة الصور التكنولوجية المستوردة التي يمتلكها المجتمع العربي الا ان خط الثقافة المعنوي ظل يسير بخطوات بطيئة ومتعثرة على الدوام.

وفي الحقيقة فأن الثقافة تشكل نمطا واحدا من أنماط البناء الاجتماعي الأخرى(الاقتصادي والسياسي والقرابي والايكولوجي) وبالتالي فإننا لا نحمل الثقافة العربية المشكلة برمتها. الا إننا لا نستطيع ان ننكر أن الثقافة تلعب دور واضح وبارز في تغيير الأنماط الأخرى ربما بقدر اكبر بكثير مما تفعله تلك الانماط بها. أذن فالتغيير يجب أن يبدأ في الثقافة. وإذا ما علمنا ان قنوات إيصال الثقافة للإنسان تمر عبر اطر رسمية وأخرى غير رسمية، الرسمية منها تتمثل بالمدرسة كوحدة رئيسية ممثلة عن حقل التربية والتعليم ، وقنوات غير رسمية تلعب العائلة والجيرة والمجتمع المحلي والإعلام غير الرسمي أهم رموزها ، ندرك ان جميع هذه القنوات بشقيها الرسمي وغير الرسمي هي غير فاعلة أو فعاليتها بطيئة، أو فاعلة بالاتجاه السلبي المضاد. بالنسبة للقنوات غير الرسمية فأن مجتمعاتنا العربية (في المجمل) مع اختلاف وتباين في النسب، ظلت تعيش حالة اجترار ثقافي مزمن ناتج من" قدسية الماضي " وعدم جواز المساس به أو النيل منه بأية صورة من الصور ، وبالتالي فأن هذا التراكم الذي يمتد إلى قرون ظل يكدس المضادات فوق مضاداتها وعلى العقل العربي أن يتقبلها جميعا في عملية هضم عسيرة للغاية . أما القنوات الرسمية المتمثلة بمؤسسات التربية والتعليم فأننا سوف لا نجد أية مشكلة في تحديد تلكئها وتعثر خطواتها بالمقارنة ليس مع المجتمعات المتقدمة فحسب بل وحتى مع المجتمعات المماثلة لظروفنا الاجتماعية والثقافية في العالم الثالث وهذا واضح من الارتفاع الفاحش في الامية يقابله الارتفاع الكبير في السكان مع الانخفاض الشديد بالتخطيط لاستيعاب السكان ايكولوجيا واقتصادياً وثقافياً .. الخ ..وسنحاول هنا تفكيك شفرة الثقافة العربية من خلال تفحص أهم مصادرها وهي كالآتي:-

التعليم:

وصلت نسبة الأميين في الوطن العربي إلى ما يقارب (٧٠) مليون في عام ٢٠٠٥ وأشار تقرير صدر عن المنظمة العربية للثقافة والعلوم إلى ان هذه النسبة تعادل ضعف المتوسط العالمي للامية. ان عدد الإناث في الرقم المخيف المشار إليه يقترب من ضعف عدد الذكور، ولقد احتلت مصر المرتبة الأولى بمجموع إجمالي وصل " ١٧ " مليون أمي في حين جاءت بعدها السودان ثم الجزائر فالمغرب فاليمن. في المقابل احتلت الرتب الأولى في نقص ألامية كل من الإمارات وقطر، ثم البحرين والكويت. و من المعلوم انه لا سبيل للمقارنة بين النتائج بحكم عدم تناسب الكثافة السكانية والموارد الاقتصادية بين المجموعتين الأولى والثانية. لقد ازدادت في نظرنا أهمية هذا المؤشر في النظريات الاجتماعية الجديدة في مجال التنمية، حيث أصبحت العناية تتجه لإبراز الأدوار الهامة التي تلعبها المعرفة في مجال التنمية الإنسانية الشاملة، كما أصبحت البنيات المعرفية وبنيات التنشئة الثقافية تشكل مداخل أساسية، في باب مقاربة كثيرة من الظواهر السلبية المهيمنة على المجتمعات المتخلفة. وتبرز أهمية هذا العمل في تركيزه على الإنسان كقيمة عليا في مجال التنمية والتقدم وأصبحت الموارد البشرية المؤهلة ، تشكل اليوم دعامة مركزية من دعامات الإقلاع الاقتصادي والاجتماعي [١١] .

لقد تطور عدد ألامية في الوطن العربي من ٤٩ مليون أمي وأمية في عام ١٩٧٠ (منهم ٢٩ من الإناث) إلى ٦٨ مليون عام ٢٠٠٠ (منهم ٤٤ مليون من الإناث). ولا يعود سبب استمرار ألامية لضعف جهود مكافحة ألامية أو عدم فاعلية برامجها فحسب، وإنما ايضاً لعدم سد منابع ألامية في التعليم الأساسي الإلزامي. ومادامت معدلات التمدرس، على الأقل في المرحلة الابتدائية لم تصل إلى شمول كامل للاطفال في سن هذا التعليم (أي

معدل تمدرس صاف يصل إلى ١٠٠ %) بما يشمل حاجات التعليم الخاص للفئات غير القادرة على التعليم المضاد وهو أمر لم تصل إليه البلدان العربية ولا يبدو انها ستصل إليه بالأمد القريب، فأن تدفقات ألامية من الشباب المتسربين من المدارس ستتوالى. ان معرفة القراءة والكتابة في الوطن العربي لازالت حتى هذا اليوم لا تخص أكثر من ٦١,٣ % من السكان ذوي الأعمار (١٥ سنة فما فوق) في عام ١٩٩٩ مقابل أو ٧٣,١ % في مجمل الدول النامية . الا ان الرقم القياسي لتطور هذه النسبة بين ١٩٨٥ و ١٩٩٩ بلغ في الدول العربية ١٣٣ مقابل ١١٧ في الدول النامية مما يشير الى ان هناك ايضا جهود عربية ايجابية وان لم تستطيع تلك الجهود ردم الفجوة الواسعة جداً بين العرب والعالم [١٢] ان نظرة سريعة على جدول معدلات ألامية في العالم سوف يبين لنا مدى المأزق الذي تعيشه الثقافة العربية جراء تردي واقع التعليم لدينا وسوف يبين لنا كذلك مدى هزالة أنظمتنا التربوية وسياساتنا في هذا المجال[١٣] .

جدول رقم (٢) يمثل تطور معدلات ألامية في العالم(%)

المنطقة	الأعوام				
	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٠	١٩٩٥	٠٠٠
العربية	٠,٧	٠	٨,٨	٣,٨	٨,٨
الدول النامية	١,٩	١,٨	٢,٦	٩,٦	٦,٣
الدول المتقدمة	,٧	,٤	,٩	,٤	,١
العالم	٧	٠,٦	٤,٧	٢,٧	

أن النسب المئوية التي يشير إليها الجدول أ
عن حقائق ذات طعم مر لاذع، إذ تبدو النتا
للآمال حتى بالمقارنة مع الدول النامية والتي
قسم كبير منها ما تمتلكه الأقطار العربية م
اقتصادية ضخمة ومتنوعة. ويمكننا ان نع
مظاهر تردي واقع التعليم في الوطن العربي
التالية: - [١٤]

١- أختلاف السياسات التربوية والتع
الدول العربية وتعدد النظم والمناهج المعت
يعزل كل دولة عربية عن شقيقاتها عزلاً ي
كاملاً، وفي ذلك إضعاف للروابط الثقافية والمع
هذه الدول وتقليل فرص الاستفادة المتب

الخبرات والقدرات لتطوير التعليم وتجويده في إطار الجوامع الفكرية والحضارية .

٢- عدم مواكبة كثير من مناهج التعليم لتطورات العصر وتقنياته وتخلفها عن مجارات التطورات التي يشهدها حقل التعليم على الصعيد الدولي مما يعمق من الهوة الفاصلة بين التعليم في الوطن العربي والتعليم في العالم.

٣- ضعف مستوى عدد كبير من المعلمين. إذ ان أصحاب النسب الضعيفة من حملة الثانوية العامة هم الذين يوجهون نحو كليات التربية وكليات أعداد المعلمين. وهؤلاء من نتاج النظام التعليمي السائد القائم على التلقين للاستظهار بدلاً من التعليم للتفكير والإبداع.

٤- عدم توفر البيئة المدرسية في العديد من الدول العربية على المتطلبات الأساس لإنجاح العملية التربوية، سواء تعلق ذلك بالمباني أو التجهيزات أو بقلة وانعدام فرص التعبير الحر عن الآراء يضاف الى ذلك المركزية الشديدة في الإدارة، مما يؤثر تأثيراً سلبياً على العملية التعليمية ويحد من حرية المبادرة والتصرف والتفكير في استنباط الحلول للمشكلات القائمة على مستوى الإدارات التعليمية وعلى مستوى أسرة التعليم في المدارس وهيئات التدريس في المعاهد والكليات ايضاً.

٥- تفشي ألامية بشكل كبير في العديد من الدول العربية وعدم قدرة تلك الدول على محوها بشكل فعال وشامل، على الرغم من الجهود المبذولة والأموال التي أنفقت في هذا المجال.

جدول رقم (٣) يوضح أمثلة لمعدلات إنفاق الدول العربية على مراحل التعليم لديها وحسب احصائات ٢٠٠٠-٢٠٠١ .

الدول	معدلات الإنفاق				عدد الطلبة	
	لتعليم الأولي	الابتدائي	لثانوي	جمالي	الكلية	الخريجي
اوربا	٣,٥٤ %	٢,٩١ %	٤,٦٧ %		٢ ,١٤٤,٥٢	
المغرب	٨,٢٥ %	٨,٧٦ %	٩,٩٧ %	%,١٩	٥ ,٣٦٩,٠٦٣	٦,٣٠٣
السعودية	٠,٤٨ %	١,٩٩ %	٢,٧٣ %	%,٢٧		
مصر	%٤	٢,٩٨ %	٦,٩٥ %	%,٠٥		

*المصدر " ISECO " تقرير تحت عنوان واقع التعليم في الدول العربية. منشور عبر شبكة الانترنيت.

إننا ومن خلال ما تم الإشارة إليه حول واقع التعليم في الأقطار العربية ندرك مدى فشل سياسات التعليم في كثير من الأقطار العربية، وهو الأمر الذي يؤكد مطلب الإصلاح في مجالات التربية والتعليم المختلفة، إصلاح أنظمة التعليم والمعرفة، محاولة الاستفادة من المكاسب والمنجزات التي حققتها الأنظمة التربوية الجديدة، في مجال مقاربة الظواهر التعليمية في مختلف مستوياتها وأبعادها ، وهي تساعدنا كذلك على تفسير كثير من مظاهر التقليد المنتشرة في عالمنا ، سواء في المجال السياسي أو في مجال العقائد والأفكار، أو في مستوى انتشار آليات ورؤى الفهم الأسطوري للظواهر الطبيعية والإنسانية . ولا يمكن مواجهة كل ما سبق الا بوضع مخططات في التنمية تعطي لعامل تعميم وتوسيع وتطوير المعرفة داخل المجتمعات العربية، دورا فاعلا في مشروع مواجهة.

ظواهر التطرف التي صنعت كثيرا من البؤس التاريخي المعمم في مجتمعاتنا [١٥]. وتكشف كثير من ردود الفعل المنتشرة في مجتمعاتنا اليوم التأثير الكبير الذي تمارسه ألامية على عقول شبابنا، فالتطرف والانقياد الأعمى(للشيوخ) الأموات منهم والأحياء وتغييب العقل وسيادة الوثوقية كلها معطيات لا يمكن التخلص منها الا بمزيد من نشر ألوية المعرفة في العالم العربي. أن المعرفة هي قبل كل شيء، عملية تاريخية مركبة وهي الطريق الأسلم نحو العقل المنتج ، العقل الإجرائي المساعد على الابتكار والتجديد ، وهي ليست جملة من المعارف والحقائق المغلقة ، بل هي طريق وأداة مساعدة على تطوير المنجزات والمكتسبات في أفق من التطور لا حدود له [١٦].

وإذا كان هذا الواقع المرير تمثله القناة الرئيسية والرسمية لإحداث التغير الثقافي الممنهج والمقصود، فما بالك بالقنوات غير الرسمية التي يتشرب منها الإنسان العربي ثقافته. لقد أجرى الباحث مسحا عشوائيا لعشرون مكتبة في العراق والأردن في عامي ٢٠٠٥،و ٢٠٠٦ شملت أربعة مدن هي بغداد وعمان والنجف والبصرة وبواقع خمس مكتبات في كل مدينة وقد أظهرت النتائج ان الدين واللغة والتراث تسيطر على ما نسبته (٦٥ %) من مجموع بقية الموضوعات. أما نظرة سريعة على الإعلام العربي (الرسمي وغير الرسمي) والذي ناخذ القنوات التلفزيونية الفضائية مثالا له على اعتبار انها المجال المشترك للمتلقي العربي(سامعاً ومشاهداً ومتفاعلاً ومشاركاً ومحاوراً)، ولنكن أكثر تحديدا فلنأخذ القنوات التلفزيونية التي تبث برامجها عبر أقمار النايل سات والعرب سات، وسوف نجد ان هناك ما يقارب ١٠٠٠ قناة جميعها تبث بارادات عربية رسمية وغير رسمية والقليل منها (لا تتجاوز أربعون قناة) تمثل سياسات دول أجنبية لها مصالح في الوطن العربي كالولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وإيران وروسيا وانكلترا. أن متوسط مشاهدة تلفزيونية يصل إلى عشر ساعات في اليوم لابد وان يكون فاعلا ومؤثرا في قولبة السلوك العربي ضمن بوتقة ثقافية تلعب إلى جانب بوتقة التعليم والقراءات الحرة دوراً مميزاً وواضحاً في عملية التغير الثقافي. الا إننا سوف نجد الافتقار الشديد للثقافة الحرة والمتحررة التي يجب أن تشارك هذه القنوات التلفزيونية في بنائها داخل الشخصية العربية. فما عدا قنوات قليلة جدا تهتم بموضوعات الوعي والثقافة العامة والبيئة والتعليم الأكاديمي، فأننا نجد أن النسبة العظمى من برامج القنوات البقية تكون إما برامج سياسية وفكرية ودينية متضادة ومتناقضة والتي تزيد من سعة الفجوة بين العربي والعربي، أو قنوات تبث الغناء والرقص والشعر البدوي على مدى ٢٤ ساعة في اليوم . وبذلك فأن هذا الجانب هو الآخر مشلول أو أعرج ولا يستطيع أن يصنع ثقافة متحررة يمكن ان تحدث تغير حقيقي في قناعات الإنسان العربي وتدفعه إلى الإبداع والإنتاج المميز.

لازلنا في حقبة انتقالية بين العهد العثماني وعصر النهضة. عناصر التجريتين ماثلة في تراثنا الثقافي الراهن. مازالت الهموم العميقة، عند المثقف العربي، هي هموم (دينية – أكاديمية) و (أدبية – أكاديمية) . أي انه مافتئ يعيش ، على صعيد مخاضه الفكري ، في مرحلة الرد الدفاعي عن مواقعه . يذهب إلى الدراسات الأكاديمية وفي طوية نفسه حساب قديم لم يتخلص منه بعد، بينه وبين نفسه، هو حساب ارثه الثقافي.وبشكل واع يتجه غالباً نحو اختيار الموضوعات التي ترتاح نفسه إليها. ان من ثوابت البنى التقليدية، على امتداد العالم العربي، ارتباطها بنظام من القيم والمعاني، المتمثل في الفكر الديني، وبنظام من التصورات والأفكار والتجارب، رديف له، يتمثل في الثقافة الأدبية. ويمثل النظام الاقتصادي، الذي يجب ان يكون تقليدياً ايضاً، القاعدة الثالثة لهذه الطاولة لكي تتساوى الأمور وتثبت المعادلة. ان التجربة السياسية المريرة التي عاشها العرب تحت الحكم العثماني جعلت المثقفين العرب يعتقدون ان تصنيف الناس يتم على صعيد تصنيف الملل. ولكثرة ما أوغل في ذلك الوقت رجال الدين في تلافيف عقول الناس، ترسخت فكرة مفادها ان في إطار الدين، عند أهل كل الطوائف والأديان المعروفة عند العرب، تكمن الأجوبة الصحيحة لمشاكل البشر. وهكذا نشأ هذا الموقف الدفاعي الذي يميز المثقف العربي، اياً كان دينه الذي يرد مباشرة على تحدي الزمن الحاضر، زمن

العلم والتكنلوجيا، باللجوء إلى أحضان أمه البنية التقليدية، سائلاً اياها عن أجوبة لمشاكله. والأم الحنون سرعان ما ترضعه عدد من الأجوبة، يطمأن إليها قلبه فينام [١٧] أما الثقافة الأدبية فهي في موقع مماثل، حيث انها خزان التراث وأفخم ما عند العرب، ذلك ان تجربتنا اللغوية من أقدم وأغنى تجارب العالم على الإطلاق. وذا كانت الثقافة العربية بهذه القتامة، وكانت قنواتها المغذية لها هي أكثر قتامة منها فأنها بلا ريب تقف معوق حقيقي دون صناعة أو توفير البيئة الصحية والسليمة التي تحتضن الإبداع وتنتجه وبالتالي فأن الباحث يعتقد ان الثقافة العربية هي واحدة من المعوقات الرئيسية التي تقف حجر عثرة في طريق الإبداع العربي في شتى المجالات ومنها علم الاجتماع.

ثانياً – الفكر الاجتماعي العربي

الثقافة والفكر مفهومان مترابطان إلى حد كبير، يغذي احدهما الآخر سلباً أو ايجاباً، الفكر الإنساني يأخذ مناح ووجهات عديدة وتدل جميعها على إبداع الإنسان العقلي وإنتاجه للفكر الذي يعتبر الدعامة الأساسية والميزة الكبرى التي تميز مجتمع بشري عن آخر، ولا يشير مفهوم الفكر حصراً (الفكر الاجتماعي) إذ ان هناك فكر(أيديولوجي) وفكر سياسي وفكر اقتصادي.. الخ.. إلا ان هذا لا يعني ان هذه الجوانب مغلقة على بعضها او ان كلا منها لا يعني بالأخر، إذا تشترك هذه الجوانب وتتعمق علاقاتها فيما بينها.

وبالنسبة للفكر الاجتماعي العربي فأنه يبدو غير عميق وغير متراص الحلقات ومتسلسلها اعتماداً على آراء من اخذوا على عاتقهم تتبع هذا الفكر تأريخياً من الاجتماعيين العرب المعاصرين. ويحاول البعض من هؤلاء ترقيع آو ترميم هذا الخلل في الفكر الاجتماعي العربي من خلال زج مفكرين مسلمين من قوميات أخرى. ان الدولة الإسلامية في عنفوان بروزها في العصر العباسي في بغداد والاندلسي في أسبانيا قد استقطبت العديد من مفكرين وساسة وشعراء واد باء واقتصاديين من أمم أخرى بحكم ان المركز يستقطب الأطراف وهذا ما حصل في بغداد التي استقطبت المبدعين من مختلف الأمم وكذلك حصل هذا في أسبانيا الاندلسية إلى حد كبير. إلا إننا لا نستطيع ان نقول بأي حال من الأحوال ان هؤلاء المفكرين هم نتاج الثقافة العربية بل هم نتاج ثقافتهم ومسيرة بلدانهم الفكرية استطاعوا ان يقدموها خلال تواجدهم تلامذة أو أساتذة أو وزراء أو ساسة داخل بغداد والأندلس.

ويكاد يشترك معظم الاجتماعين العرب المعاصرين بمجموعة من المفكرين الذين يعتقدون إنهم غذوا الفكر الاجتماعي العربي في العصور اللاحقة. وما عدا الكندي المولود في الكوفة عام ١٨٥ هـ والمتوفى في بغداد عام ٢٥٧ هـ وابن خلدون المولود في تونس عام ١٣٣٢ م والمتوفى في مصر عام ١٤٠٦ م فأن الباحثين في تأريخ الفكر الاجتماعي العربي لا يستطيعون إثبات النسب العربي لبقية المفكرين الذين يضمهم آخرون إلى الفكر العربي كيفما اتفق. وهذا ما يحصل مع ألفارابي المولود في مدينة فاراب ٢٥٩ هـ - ٣٣٩ هـ، والغزالي المولود في طوس ٤٥٠ هـ والمتوفى فيها ٥٠٥ هـ، وابن باجة المولود في سرقسطة ٤٧٥ هـ والمتوفى ٥٣٣، وابن طفيل المولود في غرناطة ٥٠٠ هـ والمتوفى ٥٨١ هـ ، وابن رشد المولود في قرطبة ٥٢٠ هـ والمتوفى في قرطبة ٥٩٨ هـ وصاعد الاندلسي المولود في الأندلس ايضاً في عام ١٠٢٤ والمتوفى في عام ١٠٧٠.وحتى لو اتفقنا على ان جميع هؤلاء المفكرين هم نتاج الثقافة العربية وإنهم قدموا فكر عربي فأن هناك جملة من الملاحظات التي تشير إلى تعثر المسيرة الفكرية هذه والتي يمكن إجمالها بالآتي:-

١- ان هؤلاء ليسوا مفكرين اجتماعيين بل هم ايضاً وفي نفس الوقت ساسة أو وزراء أو أطباء أو فلاسفة أو مؤرخين وبالتالي فأن نتاجهم لم يكن فكر اجتماعي موجه وإنما كان الفكر الاجتماعي يأتي تحصيل حاصل لإثبات افتراضاتهم حول الخليقة والخالق والدين والسلطة والقبيلة وغيرها.

٢- إنهم لم ينتجو مدارس فكر اجتماعي يمكن ان تعتمد آرائهم مناهجاً لها.

٣- إنهم جميعاً عاشوا خلال فترة الحكم العباسي في بغداد والاندلسي في أسبانيا خلال المدة الزمنية المحصورة بين ٧٩٥ و ١٤٠٦ ميلادية أي خلال (٦) قرون كاملة وبمعدل مفكر واحد لكل (٨٥ سنة) .

٤- بُعد المسافة بين الأندلس وبغداد جعل هؤلاء ينقسمون إلى فريقين، احدهما شرقي يمثله الكندي وألفارابي والغزالي والآخر غربي يمثله ابن خلدون وابن رشد وابن ماجة وابن طفيل وصاعد الاندلسي. كذلك فأن الفترات الزمنية غير مترابطة وغير متممة لبعضها، فمثلا نجد ان الفترة الزمنية بين طرفي تاريخ ظهور هؤلاء المفكرين يتحدد بين ٧٩٥ م لدى الكندي و١٤٠٦ لدى ابن خلدون وهي مده طويلة تصل الى ٦٠٠ سنه تقريبا، وإذ نجد ان الفارابي قد كان معاصرا للكندي فان صاعد الاندلسي كان الاقرب لابن خلدون وان كان الأول قد سبق الثاني بحوالي ٢٧٥ سنه.كذلك نجد ان المجموعة الأكبر كانت تقع في قلب هذه الفترة والتي تجمع الغزالي وابن طفيل وابن ماجه وابن رشد وجميعهم قد عاشوا خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

٥- لم يجمع بين هؤلاء سوى الدين بينما كانت اللغة والتراث عواملاً غير مشتركه وبالتالي فأن أعمدة الفكر لم تكن مكتملة لديهم.

ان سقوط بغداد عام ١٢٥٨ وغرناطة عام ١٤٩١ كان إيذاناً بدخول الفكر الاجتماعي العربي في النفق المظلم الطويل، وهنا بدأت حركة الاجترار الفكري أو التغذية الراجعة. لقد بدت الحركة عكسية، نكوصاً على الأعقاب، فلم يكن ملاذاً غير الدين واللغة والتراث. وبلا ادنى شك فأن عمليه الانغلاق الثقافي والفكري كانت محكمة فبدأت عملية التغني بالأمجاد العربية الجاهلية والاسلاميه والامويه والعباسية والاندلسية. وكان الفكر الاجتماعي العربي يسير نحو الانحطاط عاماً بعد آخر وقرناً تلو قرن. ومع شروق شمس جديدة للفكر الاجتماعي في أوربا بعد حركات الاستكشاف وثورة البخار والاستعمار والثورة الفرنسية فأن الفكر الاجتماعي العربي كان يغط في سبات عميق ويعاني في الوقت ذاته من مجموعة من الأوبئة والامراض التي تشل حركته وتمنعه من الاستيقاظ. وحتى عملية الاستيقاظ البطيئة فقد ساعدنا فيها الفرنسيون حينما احتل نابليون مصر وكانت الصدمة كبيرة عندما تفاجأ الرعيل الأول من التنويريين العرب بمدى الفجوة التي كانت تفصل الفكر الاجتماعي الأوربي عن الفكر الاجتماعي لدى العرب. وهكذا فقد بدت عملية الانطلاق المستقل غير منطقية على الإطلاق فكان التعلق الشديد إلى حد الانبهار والوله الكبير الذي يقود الحبيب وهو أعمى نحو حبيبه مهما كانت النتائج. ولم يستمر طويلاً حتى تحول هذا الحب إلى تبعية فكرية عميقة من غير الممكن ان تسمح للتابع بسبق المتبوع أو اللحاق به على الأقل أو حتى بتقليص المسافة إلى حد معقول. ومن هنا يمكننا ان نفهم ماذا تعني الفترة الزمنية المحصورة بين منتصف القرن التاسع عشر عندما تبلور علم الاجتماع في أوربا والولايات المتحدة بصورته المميزة الواضحة، وبين منتصف القرن العشرين عندما عاد الرعيل الأول من الاجتماعيين العرب، بعد ان تتلمذوا في أوربا واميريكا، إلى بلدانهم في مصر والعراق وسوريا ولبنان ليأسسوا اقساماً لعلم الاجتماع في جامعات هذه البلدان لأول مرة.

ولم تكن حالة التخبط العشوائية ملاصقة للفكر الاجتماعي العربي طوال الفترة المظلمة وحتى النصف الأول من القرن العشرين فحسب بل كانت ايضاً ملاصقة للفكر في معظم الدول الشرقية والإسلامية منها بوجه الخصوص. ويصوغ الدكتور علي شريعتي قائمة طويلة من المرادفات المتناقضة بين بداياتهم مع علم الاجتماع (الأوربيين والاميركان) وبداياتنا نحن الشرقيون " عرب وإيرانيون وأفغان وترك .. " فيقول انهم غربيون وإننا شرقيون ومع وجود فترة المائة عام بين ١٨٥٠ سنة ظهور علم الاجتماع في أوربا و ١٩٥٠ سنة ظهوره في العديد من مجتمعاتنا ، مع وجود المائة عام هذه التي كانت من المفترض ان تقلص الفجوة إلا ان مقارنة حالة الفكر لدينا مع ما لديهم كانت مخيبة للآمال بل ومخيفة. وتتجلى الفروق ويظهر التباين بين الطرفين، احدهما ذو رؤية قائمة على الحساب ومنطلق من مبدأ الكسب، والآخر ميال للعاطفة ومنطلق من مبدأ القيمة. الأول بورليتاريا صناعية والثاني مزارعون وقرويون وما دون طبقة البروليتاريا. هناك صناعة ثقيلة وهنا مجرد استهلاك، هناك انتقلوا من البرجوازية إلى الرأسمالية وصعوداً نحو الإمبريالية وهنا لم تكن البرجوازية الصغيرة قد اجتازت مرحلة السمسرة. وهناك في عام ١٨٥٠ كانوا قد تركوا القرون الوسطى وراء ظهورهم بينما كنا نعيشها في عام ١٩٥٠ بكافة تفاصيلها، هناك كانوا قد قاموا بالثورة الفرنسية بينما كنا نقرأ عن الثورة بالكتب وكذلك بالنسبة للثورة الصناعية في انجلترا التي سبقت ظهور علم الاجتماع لديهم بقرنين من الزمن. بينما كان إدخال الآلة في الوقت الذي ظهر فيه علم الاجتماع لدينا كان من صنع أوربا ذاتها. عندهم كان المتعلمون أناس ذوو وعي اجتماعي ورؤية نقدية وفكر وأيديولوجية وتعاطف مع الناس وسلوك مضاد للأرستقراطية وللبرجوازية وعواطف عالمية إنسانية بدرجات متفاوتة، بينما كان المتعلمون لدينا (وربما لازالوا) يأخذون شهادات جامعية ويدخلون في خدمة الحكومة ويشتركون في المحافل، يتبؤون المناصب ويقبضون النقود دون مشاركة فعلية في أحداث التغير الاجتماعي والثقافي. في أوربا وأمريكا كان أستاذ الجامعة يحيا في مقام أعلى شرفا من رئيس الدولة بينما يرضى الاستاذ الجامعي لدينا بأي عمل يناط به ويكون على شكل " مكرمة " من الدولة. هناك يعتبر الماضي مجرد ذكرى محترمة بينما هنا الماضي يعيش في الحاضر أكثر من الحاضر ذاته. هناك تعيش الأغلبية عصرها الذهبي في الوقت الذي يتحكم أفراد معدودون في مجتمعاتنا بمصائر عشرات الملايين من (رعاياهم) . هناك المفكرون على علم بمجتمعاتهم وهنا المفكرون يتشبهون بأولئك فيعيشون في غربة عن مجتمعاتهم التي لم تستطيع أن تفهم ماذا يريدون وعن ماذا يتكلمون. هناك لديهم حكومات ديمقراطية منذ قرون ولديهم فلسفة سياسية مستندة على الشعب وسيادته والسلطة اللا دينية والروح القومية والرؤية الكونية والفلسفة المادية ونظام إداري مدني بينما لا يزال لدينا " الزعيم " منبع السلطات وذو صبغة دينية ولا توجد إدارة ولا تخطيط ولا برمجة. لديهم قانون ولدينا حكم([١٨]).

لقد كانت الظروف التي رافقت وسبقت ظهور علم الاجتماع لدينا في عام ١٩٥٠ مختلفة تماما عن الظروف التي هيأت ورافقت وبالتالي نتج عنها ظهور علم الاجتماع في أوربا عام ١٨٥٠. الظروف التي كانت لديهم قبل مائة عام هي أفضل بكثير من الظروف التي لدينا بعد مائة عام. الفكر والثقافة والأدب والفن وحقوق الإنسان والديمقراطية والحرية والسياسة والقانون كانت أفضل لديهم في عام ١٨٥٠ مما لدينا في عام ١٩٥٠ ولذلك فأن الفجوة التي تفصل بيننا وبينهم ليست زمنية فقط بل هي روحية ونفسية كرست حالة العجز لدينا فأصبح لامناص من التبعية ومن التقليد والمحاكاة والتشبه والنقل والاستنساخ فماتت ميكانزمات الإبداع وحل محلها التلقين والتدجين والتنميط والقولبة. فكيف يصبح من الممكن التفكير بإنتاج نظرية عربية في علم الاجتماع من عربي عاش ولا زال يعيش وربما سوف يعيش تحت سطوة هذه الظروف القاهرة حتى إشعار آخر

ثالثاً– التبعية: تقليد ومحاكاة

مع غياب فكر عربي مستقل (اجتماعي، سياسي، اقتصادي، تنمية... الخ) فقد كان لابد من التبعية. وبالفعل فقد انقسم الاجتماعيين العرب حالهم حال زملائهم في باقي المجالات الأخرى إلى فريقين، الأول تابع ومتابع لعلم الاجتماع البرجوازي، والثاني تابع ومتابع لعلم الاجتماع الماركسي. وبهذه الخطوة فقد بدأت مرحلة خطيرة جديدة ربما كانت أكثر خطورة من مرحلة اللاشيء والانتظار. لقد تصارعت المدرستان البرجوازية والاشتراكية في علم الاجتماع على الأرض العربية أكثر مما حدث لها ذلك في أوربا ذاتها . وكان المدافعون من كل فريق يصرون على ان الخلاص يتجلى فقط من خلال التبعية للمدرسة التي يقلدها دون ان يفكر أياً من الفريقين بإمكانية قيامهما بإنشاء مدرسة خاصة بمجمعاتهم. ان الفروق بين مدرستي علم الاجتماع لدى الغرب(برجوازية واشتراكية) هي فروق كبيرة كما يشير كل طرف منهما إلى ذلك. فالماركسيون كانوا يقولون بأن أبحاث علم الاجتماع في البلدان الاشتراكية لا تستطيع ان تسير في محاكاة علم الاجتماع البرجوازي وخاصة علم الاجتماع التجريبي الأمريكي. ويعتقد هؤلاء أن علم الاجتماع البرجوازي الاميريكي مهشما إلى عدة (علوم اجتماع) متباينة استنادا إلى موضوع البحث(العمل – العائلة – القانون... الخ) ومن الملاحظ ايضا ان عشرات من علوم الاجتماع هذه تدرس أوجها وظواهر متباينة من الحياة الاجتماعية في بلد من البلدان خارج سياقها الذي يربطها بالكل الاجتماعي، ويرجع ذلك إلى افتقاد علماء الاجتماع البرجوازيين لنظرية متسقة ومتماسكة في علم الاجتماع [١٩]. بينما يؤكد علماء الاجتماع البرجوازي بان تفرع علم الاجتماع إلى حقول كثيرة ومتشعبة إنما جاء نتيجة منطقية لزيادة معلومات ونظريات وحقائق هذا العلم، فأيقن العلماء الفائدة المتوخاة من نظام تقسيم العمل وتطبيقه على الدراسات الاجتماعية. أن النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع تشتق تأريخيا من ثلاثة اتجاهات فكرية مختلفة، أولها الاتجاه التحويلي والتطويري الذي حمل لوائه كومت في فرنسا(١٧٩٥ – ١٨٥٧) وهوبهوس في بريطانيا (١٨٦٤ – ١٩٢٩) ، ان فضل هذا الاتجاه الفكري يتلخص بدراسة تطور المؤسسات القانونية والأخلاقية في مجتمعات ما قبل الثورة الصناعية وتطوير طرق المقارنة التي يستعملها علم الاجتماع . أما الاتجاه الفكري الثاني فينعكس في نظريات دوركهايم (١٨٥٨ – ١٩١٧) والتي تأثرت اصلاً بأفكار كومت من الناحية الموضوعية وأفكار هربرت سبنسر من الناحية التحليلية. ثم يأتي الاتجاه الثالث الذي اثر في تطوير النظرية الاجتماعية لينعكس في دراسات ونظريات كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وماكس فيبر(١٨٦٤ – ١٩١٨). ولا يمكن ايضاً نكران فضل كل من الألماني جورج زيميل(١٨٥٨ – ١٩١٨) والإيطالي باريتو (١٨٤٨ – ١٩٢٣) ومساهمتهما الفعالة في تطوير هذه النظرية وتحسين طرقها الدراسية ورفع مستواها العلمي [٢٠]. لقد كانت وجهة طلبة علم الاجتماع العرب في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين إلى أوربا وبالتحديد (فرنسا وبريطانيا) والى الولايات المتحدة. ولقد كان من المنطقي ان يتأثر هؤلاء، وكانوا في البدء من أربعة أقطار عربية، بأساتذتهم في هذه الدول التي سافروا إليها ، كذلك فقد ساهمت نشوة نصر هذه الدول في الحرب العالمية الثانية وقيادتها لمعسكر جديد في ترسيخ فكرة ان هذه الدول هي أفضل من تقدم للعالم نماذج متقدمة في مختلف العلوم ومنها علم الاجتماع . وفي المقابل فقد ساهمت هذه النظرة المتعالية للأستاذ في ترسيخ فكرة التبعية والتقليد لدى التلميذ الذي شعر بأنه يعيش في بيئة عميقة الجذور ، بينما جذوره متقطعة منذ أكثر من سبعة قرون على اقل تقدير من هنا كان لزاماً ان يخضع هؤلاء التلامذة سايكولوجياً إلى معلميهم الذين أبدعوا بدورهم أيما إبداع في تلقين تلامذتهم الأفكار التي يؤمنون بها . يصف الدكتور علي شريعتي في كتابه العودة إلى ألذات العلاقة بين التابع والمتبوع بعلاقة الطفل بأمه، فألانسان الشرقي ونتيجة إحساسه بأنه من جنس أدنى وان الغربي من جنس أعلى وانه صانع للحضارة فأن علاقته به سوف تشبه علاقة الطفل بأمه . ان العلاقة التي من هذا الصنف سوف تقوم تلقائياً بين المستعمر (بفتح الميم) والمستعمر " بكسرها " على أساس المعلم والتلميذ أو ألام والطفل، فألام تنهر طفلها فيلوذ بها خوفاً منها

وطمعاً في عطفها. ان الإنسان الشرقي (العربي، الفارسي، الأفريقي، الآسيوي) عندما يشعر بأنه منتسب إلى ثقافة هشة وحضارة محطمة فأنه يلجأ إلى التشبه بالغربي حتى يدفع عن نفسه عار الانتماء الى عرقه المتهم بالبدائية ومن هنا تصبح علاقة الشرقي بالغربي علاقة تبعية كاملة أو شبه كامل(٢١).

ومع تسليمنا بأن يتأثر التلامذة العرب بآراء أساتذتهم وحتمية ان ينقلوا معهم إلى بلدانهم والأقسام العلمية التي انشأوها بعد عودتهم وهم يحملون شهاداتهم الأكاديمية، ان ينقلوا المعارف السوسيولوجية من مفاهيم ونظريات ومناهج بحث وطرق وأدوات عمل، وان ينقلوا إلى طلبتهم الذين كانوا يتوقون لمعرفة خفايا وخبايا هذا العلم الجديد، ان ينقلوا إليهم الآراء والتوجهات التي اطلعوا عليها في أوربا واميريكا. الا ان المشكلة بدأت مع إصرار الأساتذة في الوطن العربي على تلقين تلامذتهم بعد ان عجزوا عن تقديم نماذج خاصة بهم، تلقينهم بما لقنهم به أساتذتهم الغربيين. ويصوغ لنا الدكتور فردريك معتوق بانوراما لأزمة علم الاجتماع العربي محدداً من خلالها وجهة نظر كل من الاتجاهين الماركسي والليبرالي في الوطن العربي حول هذه ألازمة. فالاتجاه الماركسي يعتقد ان طبيعة ألازمة تأتي بسبب غياب الديمقراطية ووجود الرأسمالية والإمبريالية، بينما يرجعها الليبراليون إلى التبعية الاقتصادية والسياسية. أما على مستوى الصعيد النظري فأنه لإبداع، بل إخفاق وتعثر في اختيار المواضيع المعبرة كما يعتقد بذلك الماركسيون في الوقت الذي يعتقد فيه الليبراليون ان هناك إبداع نسبي ولكن هناك عدم تناسب الشق النظري مع الشق التطبيقي. في مجال الأبحاث هناك اغتراب وانعزال عند الاتجاه الأول ورؤيا مجتزأة للواقع عند الاتجاه الثاني. الماركسيون يعتقدون ان الموقف المطلوب هو في الانحياز الصريح إلى الجماهير بينما يعتقد الليبراليون في الخروج من دائرة التبعية. المنهج البديل عند الماركسيين هو المادية التاريخية بينما لا يوجد هناك منهج بديل عند الليبراليين. وفي الوقت الذي وجد الماركسيون فيه ان المخرج الوحيد هو تحرير الجماهير فأن المخرج من ألازمة عند الليبراليين هو تحرير السياسيين والاقتصاديين. وأخيراً فأن الطرفين لا يتفقان الا في حقل واحد وهو الأبحاث المرجوة في ان تكون انمائية(٢٢).

لقد ضربت هذه الأمثلة لكي أشير إلى مدى تطرف كل فريق بوجهة نظرة تجاه الفريق الآخر(ماركسي أو برجوازي) وقد ازدادت جذوة الصراع بينهما بعد الحرب العالمية الثانية وانعكست من بين ما انعكست عليه توجهات علم الاجتماع النظرية والمنهجية. وما يهمنا في هذا الآمر هو أن ظهور ونمو علم الاجتماع في الوطن العربي في خمسينات وستينات القرن العشرين جاء رد فعل لصراع الاتجاهين في العالم مما جعله يدور في فراغ ويعجز عن تحقيق ذاته منذ البداية، وليساهم من دون شك في تعطيل نتاج نظرية عربية مستقلة في علم الاجتماع.إننا نلاحظ وجود تيارات واتجاهات نظرية متباينة، لا تلتقي بحيث من الممكن ان تسهم في أحداث تراكم معرفي، كما نرى أيديولوجيات متباينة ومغتربة لا تصلح لان تشكل اسسا أيديولوجية عربية حول مشروع ذاتي مستقل، فبعضهم يتحدث في دراساته بلغة الصراع الطبقي في مجتمعات لم تعرف الرأسمالية الخالصة ، والبعض الآخر يعالج قضايا جزئية مبتورة عن السياق العام ويحاول في دراسته تحليل قضايا وإشكاليات فلسفية لا مجال فيها للقياس العملي الواقعي . وبذلك نجد انفصالا بين الواقع الاجتماعي والواقع السوسيولوجي المتعامل معه. وهنا تتضح إشكالية التنظير وتحدث أزمة تشوة على المستوى التحليلي والمنهجي، وتختفي العلاقة بين ما هو فكري وما هو واقعي ويتداخل ما هو أيديولوجي مع ما هو علمي – على الرغم من التمفصل الحتمي بينهما – فينحو الباحث بوعي أحيانا ومن دون وعي في كثير من الأحيان نحو الأيديولوجي وكأنه معرفة علمية، وينسى أو يتناسى آلية الفكر وأهمية الإبداع ألتنظيري للواقع (٢٣) .

ان مشكلة التقليد التي ظهرت على كلا الاتجاهين الماركسي والبرجوازي في الوطن العربي جعلت جهود كل فريق تحاول تعطيل جهود الفريق الآخر، وفي المحصلة فان علم الاجتماع في الوطن العربي ولد وهو يحمل بذور الانقسام السلبي. وبدلا من ان يحاول كل فريق منافسة الفريق الآخر بالطريقة التي تساهم في تنشيط خلايا الإبداع، ذهب كل فريق إلى نقل آراء مدرسته الأصلية التي هو تابع لها ويقلدها. وإذا ما علمنا ان المدرستين وفي بلاد المنشأ هما غير متفاهمتين على طريق وسط تظهر لنا المشكلة بصورة أكثر تعقيدا. لقد اعتقد علماء الاجتماع الليبراليون ان محاولة الماركسية في زج علم الاجتماع في الأيديولوجية هو أمر خاطئ لسبب بسيط يتمثل في ان الأيديولوجية هي ذاتها نظام من الأفكار الاجتماعية غير الواقعية التي يراد من خلالها تمرير اهداف سياسية باستخدام تزييف الوعي. بل ويذهب الليبراليون إلى ابعد من ذلك عندما يصرحون بان سقوط الماركسية أمر حتمي (٢٤). ويرد الماركسيون على هذا الهجوم مؤكدين ان علم الاجتماع كان ولازال وسيبقى هو جزء لا يتجزأ من الايدولوجيا لأنه وببساطة علم غير اختصاصي، بل علم فلسفي قبل كل شيء ولأسباب منطقية أهمها ان (علم الاجتماع) قضية الفلسفة الأولى المطبقة في الحياة الاجتماعية، كما إنها تطرح

وتقرر قضية قوانين التطور ألتأريخي العامة وقضية التقدم الاجتماعي واتجاهات العمليات الاجتماعية الهامة ونزعاتها [٢٥]. وفوق هذا فأن سقوط الرأسمالية أمر حتمي، لذلك يجب إرجاع كل المشكلات النظرية للاشتراكية العلمية إلى علم الاجتماع الماركسي ولا يمكن نكران ان الأجزاء المكونة للماركسية ترتبط فيما بينها ارتباطا عضويا [٢٦] . لكن هل استطاع أي من أتباع المنهجين (الليبرالي والماركسي) من ان يساهم في نشوء وتطور علم اجتماع عربي ؟ الجواب كلا بسبب أن (الفريقين كانا في موقع عقم فكري مما جعل سفينتهم لا تقلع لانها ضمنا لاتريد الاقلاع) [٢٧].

وعلى هذا الأساس فأننا يجب ان ندرك بأننا لازلنا عند نقطة الشروع والانطلاق . أن حالة الفريقين اللذين قادا علم الاجتماع في الوطن العربي لأكثر من نصف قرن تشابه الحالة التي كانتا عليها دولتي المناذرة والغساسنة حتى ما قبل بداية القرن السابع الميلادي. فعلى الرغم من ان القائمين على الدولتين وكذلك رعاياهم من العرب، الا انهما لم يستطيعا أو حتى ان يفكرا في إقامة دولة عربية مستقلة في المناطق التي كانت في حوزتيهما ، أو تطبيق تجربة حكم في الجزيرة بنظرية عربية قومية مستقلة . لقد كان المناذرة عينا للفرس على الروم، في الوقت الذي كان فيه الغساسنة عينا للروم على الفرس وكلتا الحالتين عبر تخوم الصحراء العربية، واحدة تعسكر في العراق والثانية تعسكر في الشام وكلاهما في حالة استعداد تام للوثوب على الآخر وهو اخا له ، هذا من اجل إرضاء سادته الفرس وذاك من اجل سادته الروم . الا ان العقلاء والحكماء والشعراء العرب الذين كانوا يزورون أقربائهم في الدولتين لم يفكروا للحظة في كيفية إنشاء دولة خاصة بهم. ولولا بزوغ فجر الإسلام في ارض الجزيرة العربية مع بداية القرن السابع الميلادي وهدية الله (سبحانه وتعالى) العظيمة للعرب التي تمثلت بشخصية " محمد (ص)" لبقي العرب دون دولة إلى ما شاء الله.

لكن التبعية والتقليد والمحاكاة لا تنحصر فقط في علم الاجتماع، بل ان الواقع العربي سياسياً واقتصادياً وفكرياً وعسكرياً هو في تبعية مزمنة. ولا زال العربي يتلقى النصائح من الغربي منذ عام ١٩١٦ وحتى اليوم، ومع الاختلاف في النسبة والطريقة فان الجميع تقريبا في حالة تبعية . والساسة العرب وبعد سقوط مئات الشعارات المزيفة لا يخجلون اليوم من التصريح بهذه التبعية، بل تصل ذروة النقاء لدى بعضهم إلى الإعلان بأنهم قد وصلوا إلى السلطة عبر قطار اميريكي أو أنهم جميعا رجال مخابرات اميريكية. أن العرب وعبر ما يقارب القرن من الزمن (١٩١٨ وحتى ٢٠٠٧) لم يستطيعوا ان يكونوا ذاتا مستقلة في أي دولة من الدول العشرين أو أكثر. ولقد ظلت هذه الدول تتلقى النصائح والاستشارات والأوامر من السيد الغربي (إنكليزيا وفرنسيا واميريكيا وروسيا) دون ان يساهم هذا الكم من التلقي في بذر بذور الصيرورة والانطلاق. علاقة تابع ومتبوع،مبدع ومتلقي، أستاذ وتلميذ ، آمر ومأمور ، سيد وعبد ، منتج ومستهلك ، أن التبعية في الوطن العربي تظهر أولى حلقاتها في الجانب السياسي وعندما تكون الدولة هي تابعة سياسياً فان الاقتصاد الذي تتحكم فيه لابد وان يكون تابعا ايضا ، وإذا ما اعتمدنا تصور كارل ماركس حول سلم الاولويات فان السياسة في قمة الهرم يأتي بعدها الاقتصاد ثم علم الاجتماع بالمرتبة الثالثة . وبعيدا عن صدق هذه المقولة من عدمه وقناعتنا بها أو بدونه فانه يبدو ان تبعية علم الاجتماع في الوطن العربي جاء تقليدا ومحاكاة لتبعية الجوانب السياسية والاقتصادية من قبله.

رابعاً – غياب عوامل الإبداع

الإبداع هو عملية ابتكار وإنتاج شي جديد ، وليس بالضرورة ان يكون الإنتاج غير مسبوق بما يؤهله للظهور والانطلاق، فلا يطلب مثلا من الباحث العربي ان يترك وراء ظهره تراث علم الاجتماع في العالم بصوره عامة وفي الوطن العربي بصورة خاصة ويبدأ من نقطة الصفر . الا ان ما يطلب في هذا المجال ان تكون هناك صياغة مبتكرة لنظرية مستقلة في علم الاجتماع تكون انعكاسا للواقع الاجتماعي في الوطن العربي. مما لاشك فيه ان عملية الإبداع هذه، ليس في موضوع علم الاجتماع فحسب، وإنما في أي مجال آخر تخضع لمجموعة من العوامل التي أما ان تكون عواملا مشجعة وداعمة للإبداع وأما ان تكون عواملا مثبطة ومعرقله له.ان من أهم هذه العوامل الحرية التي تتيح للمبدع إمكانية التصرف وفق رؤاه وتصوراته دون خوف أو خشية ، وللأسف الشديد فان هذا العامل غير متوفر في بيئتنا العربية تماما. وليست ألدوله من يمارس كبت حرية المبدع وتقييد أفكاره ومنعها من الظهور فقط ، بل يمارس المجتمع ذلك ايضا وبكل ما يحمله من ثقافة تقليدية وفكر مشوش ويقف في أحيان كثيرة من عملية الإبداع أكثر حتى مما تقوم به الحكومة ان المنظر لا يستطيع إنتاج نظريته في بيئة اجتماعية تحارب الأفكار الجديدة وتخاف من كسر القوالب القديمة. ان سلسة من الحواجز التي يتربى عليها الطفل العربي تظل راسخة في لا شعوره تتحول تدريجيا إلى مجموعة عقد مركبة تمنع العقل من تجاوز خطوط حمراء توضع للطفل منذ نعومة أظافره. ان منظومة من المحرمات تتضمن مفاهيم مثل " حرام ، ممنوع ، مكروه ، غير مستحب ، فشل ، عيب ، لا يجوز ، ما يصير، غير ممكن .....الخ " هي بلا شك منظومة

مركبة تشتمل على قائمة عقيمة من آليات إفراغ العقل من محتواه الذي صاغه الله (سبحانه وتعالى) في الصورة التي يجب ان يكون فيها عبارة عن غرفة قيادة وتفكير وإنتاج. لقد استخدم النظام السياسي العربي الفهم الخاطئ للدين والذي تتميز به الكثير من الشرائح الاجتماعية في الوطن العربي ، مازجا معه ثقافة الخوف من كل شيء غريب والذي يؤطر بدوره الواقع العام للمجتمع ، في إدامة استمراره وتمكينه من تجاوز كبواته التي ليس لها حدود . وبذلك فقد استخدم هذا النظام الدين والموروث الشعبي وبقايا الفكر الجاهلي في ديمومته، لذلك نراه يعلن نفسه دائما حاميا للدين وللتقاليد وللعادات التي يصور ان هناك عدو خفي يتهددها ويتربص بها منذ قرون. ومن اجل تحقيق هذه الحماية فلا بد من كم الأفواه وتقييد الأيدي وتعطيل ميكانيزمات الإبداع.

لا تختلف مفاهيم أخرى مثل الديمقراطية عن مفهوم الحرية في مجتمعاتنا، فالديمقراطية معدومة سواء كانت بشكلها المباشر الذي تمارسه الجماعات الصغيرة وأهمها العائلة في المجتمعات المتقدمة، أو بشكلها غير المباشر الذي تمثله الحكومات والبرلمانات التي تأتي عن طريق الانتخابات الحرة. ان واقع الديمقراطية واقع مرير ومأساوي في جميع مجتمعاتنا العربية، فالتسلط والقهر والتمييز و التهميش والاضطهاد بصنفيه الجسدي والفكري هي من ابرز مميزات البناء الاجتماعي لدينا وبصورة أخص منه النظام السياسي. ان السلطة التي هي واحدة من نتاجات الثقافة والفكر لدينا تعطي للحاكم أحقية التصرف الأبوي المباشر على رعيته، بينما يتوجب على الأبناء ان يقدموا الطاعة والاحترام والتبجيل والتقديس للحاكم (الملهم) الذي هو ظل الله في الأرض والذي لابد من تقبيل مابين عينيه وانفه وجبهته في كل يوم خمسة مرات ومع كل موعد للصلاة. ومن اجل تسهيل مهمة الرعية في تقديم الولاء المقدس اليومي للحاكم فقد تم وضع جداريات عليها صور في كل مدينة لكي يستطيع الناس التزود والتبرك وطلب المدد بينما يراقب الحاكم (الراعي) الشعب (الرعية) من مقره الجمهوري أو الملكي ممسكا بعصاه الغليظة التي يهش بها عليهم كما يهش راعي الأغنام بعصاه على غنمه. أن الباحث في علم الاجتماع في الوطن العربي هو أولاً وأخيراً أبن بيئته، ومثله مثل أي مبدع في أي مجال آخر، يتربى على ثقافة الخوف والقمع والتمييز والاضطهاد والإرهاب منذ الصغر أولاً في عائلته وثانيا في مجتمعه المحلي ومدرسته وثالثا في مجتمعه الكبير. ان عملية التنشئة هذه تنتج وتكرس الخضوع والاستسلام والمهادنة، وتنتج ايضا المراوغة والنفاق. ثم يأتي دور الصبر الذي جيرته السلطة لمصلحتها وبمساعدة المجتمع المنكوب ذاته، فالصبر مفتاح الفرج يعني ان يخضع المجتمع بفقره وجوعه وألمه ومرضه وتخلفه خضوعا تاما للواقع (القدر) وما عليه سوى انتظار الفرج. ومن خلال عملية صبر المجتمع الطويلة تزداد أميته ويتكرس تخلفه وينخر المرض مفاصل أفراده فيعجز في ظل دوامة المأسي عن التفكير بمساوئ السلطة. أن دوامة من المعوقات يدور فيها الإبداع في الأقطار العربية وعلم الاجتماع جزء منه ، تحاصر المبدع ثم تفرغ الإبداع من محتواه . أن التصاقنا غير المبرر وغير المنطقي بالماضي هو واحد من حلقات هذه الدوامة ، فترانا وكلما ناقش بعضنا بعضا حول نظرية جديدة في علم ما ظهرت في العالم ذهب مثقفونا للتغني بالماضي ، حالنا حال من ينظر إلى آخر ابتكارات أجهزة الاتصال فيذهب مسرعا لفتح صندوق قديم لديه ورثه من جدته فيخرج منه كأس ومسبحة وسجادة عمرها ألف عام ، ثم يغلق الصندوق مطمئنا إلى ان جذوره عميقة . ولا زالت الاسطوانة المشروخة تصم الآذان وهي تعلن بأن الغرب قد سرق تراثنا ثم حوله إلى حضارة من بعض إنجازاتها الصعود إلى المريخ.

أن شبكة معوقات الإبداع في المجتمع العربي تتداخل فيما بينها وتتشابك وتتراص حتى تصبح شبكة دفاع سلبية. أن انعدام الحرية وغياب الديمقراطية وسيطرة البيروقراطية والروتين وشيوع مظاهر التحيز الوظيفي بين الإدارات وضيق الأفق لدى القيادات والجهل والتخلف والفقر تشكل جميعها حلقات مترابطة في دوامة من المعوقات التي تقف جداراً منيعا ومكهرباً بين الباحث وبين مبتغاه في الوصول إلى الحقيقة . ومن المؤسف حقا ان يقتنع بمناعة هذا الجدار حتى الشريحة المثقفة من المجتمعات العربية التي ترضى بالواقع وتستكين له دون أية محاولة لقلب هذا الواقع وأن كان هذا الأمر بحاجة إلى تضحيات كبيرة أقلها قطع الأرزاق وأكثرها قطع الأعناق. ويساهم هذا الوضع المزري والمؤلم للباحث العربي بالتفكير في الهرب والبحث عن بيئة سليمة يمكن ان تحتضن الحد الأدنى من آدميته. ويستقبل حضن الغرب الحنون المبدعين العرب الهاربين من أقطارهم منبوذين من المجتمعات والحكومات على حد سواء لارتكابهم جرائم تمثلت بالشروع في عملية إيقاظ العقل العربي من سباته العميق والعقيم. وترانا نعود مرة ثانية وثالثة لنصب جام غضبنا على الثقافة والفكر اللذان يجهضان أجنة الابتكار عند الأطفال من خلال التسلط الذي يمارسه الآباء في المنازل والمعلمون في المدارس، وفي مراحل لاحقة الضباط في الجيش والمدراء في الدوائر والشركات والجامعات ومراكز البحوث والوزراء في وزاراتهم والرؤساء والملوك والأمراء والسلاطين في دولهم (ضيعاتهم) . تبدأ عملية التسلط والقمع في

مجتمعاتنا منذ الصغر مع الأطفال الذين يتم قولبة وتنميط سلوكياتهم وفق أنماط سلوكيات الآباء والأجداد " التعليم في الصغر كالنقش على الحجر "، فكيف يستطيع الإنسان العربي، بعد بلوغه مرحلة الإبداع، أن يبدع وقد تم زرفه بحقن التلقين والتنميط والتدجين والحفظ والتقليد. وغالبا ما يجد الطفل واليافع في الأقطار العربية طريقين من آليات التعليم يجب إتباع احدهما، يدعوه الأول الى إتقان لغته الجميلة وحفظ تأريخ أمته البراق والتغني بأمجاد قومه السالفة والسير على خطى أجداده العظام، بينما يدعوه الطريق الثاني إلى العمل لآخرته والانقطاع لصلواته والتفقه في الدين واجتناب التفكير في أسرار الطبيعة والإنسان لان التفكير فيها من أسلحة الشيطان الذي يريد إغوائنا. ونتيجة لهذين التيارين ينمو الطفل العربي ويترعرع بين أمرين لا ثالث لهما، وليس فيهما للحاضر والمستقبل من مجال،احدهما ماض سحيق ميت والآخر مستقبل أخروي لا يصل إليه الإنسان الا بعد الموت. ان الإنسان العربي ينشأ " تأريخي الجذور أخروي الطموح " ولا يتذكر المجتمع العربي المبدعون من أبنائه الا بعد رحيلهم أو بعد هجرتهم. ترانا وكلما استجدت نظرية في علم ما ذهبنا إلى صندوق جدتنا الحضارة العربية القديمة وأخرجنا منه الإبريق والمسبحة التي يمتلها ابن خلدون وابن رشد وابن سينا وابن حوقل و الماوردي والفارابي وابن ماجة والفيروز آبادي والقائمة تطول. وعلى الرغم من إننا نعلم يقيناً بأن الكثير من هذه الأسماء هي نتاج حضارات غير غربية الا ان الأنا الجبارة لدينا تهضم هذه الانتماءات داخل الحضارة العربية العريقة. وبعد ان تطمئن نفوسنا للماضي التليد تقنع أنفسنا بأن الحياة فانية والسعيد فيها من اشبع جوفه وفرجه والله غفور رحيم.

كيف إذن يستطيع الباحث في علم الاجتماع في الوطن العربي ان ينتقد ثقافة هو جزء منها بل واحد نتاجاتها ؟ وكيف يمكن لهذا الباحث ان يتناول قضايا تتعلق بالقوميات الأخرى التي انضوت تحت راية الفاتح العربي منذ القرن السابع الميلادي ثم جرت محاولة صهر هذه القوميات ضمن القومية العربية ؟ وكيف يستطيع هذا الباحث ان يتناول قضايا تتحدث عن طبيعة الأديان ووظائفها وعلاقتها بالمجتمع ؟ وما الذي يضمن للباحث حياته وحياة عائلته إذا ما تناول النظام السياسي في بلده ببحث علمي موضوعي غير متحيز؟ ثم كيف يستطيع هذا الباحث ان يتناول قضايا الجنس والاقتصاد والتنمية وحقوق الإنسان وبصورة خاصة المرأة والطفل، ومواضيع أخرى تتعلق بالآداب والفنون والعادات والتقاليد والأعراف والبناء الاجتماعي، كذلك مواضيع الصحة والتعليم والإعلام.... الخ.

أن الحديث يطول ويتشعب عن مبدعين عرب يديرون رحى الحياة في أوربا والولايات المتحدة، العلوم والأداب والسياسة والفنون والفكر والاقتصاد الرياضة... الخ، فما ان يتحرر المبدع العربي من ربقة معوقات بيئته حتى ينطلق بالإبداع. ان العيب ليس في العقلية العربية اذ من غير المنطقي ان يحكم عليها بوصمة البلادة ، وإنما المشكلة الحقيقية تتمثل بدوامة المعوقات التي تحيط بهذه العقلية وتمنعها من التحرر . ويذهب المبدع في الوطن العربي ضحية إبداعه ويعاقب بأقسى واشد العقوبات من السلطة والمجتمع على حد سواء، لكن عقوبة السلطة تكون مباشرة وعيانية تصل في أحيان كثيرة إلى الإعدام بينما تتراوح الأحكام المخففة بين النفي والطرد والسجن وإسقاط الجنسية والسجن والعقوبات التأديبية. ولا تقتصر هذه الحالة على المبدعين الذين يتناولون أمور لها مساس بالدولة كالسياسة والاجتماع وإنما تشمل المبدعين في كل المجالات كالكيمياء والفيزياء ....الخ . ولكي ابعد عن نفسي تهمة المبالغة أو الادعاء الباطل على السلطة فأنني سوف أسوق جملة من أسماء المبدعين الذين تعرضوا لعقوبات من هذا المثيل في العراق: محمد باقر الصدر صاحب كتابي اقتصادنا وفلسفتنا أعدم في عام ١٩٧٩، عبد الجليل الطاهر (عالم اجتماع عراقي) طرد من العراق عام ١٩٦٣ بعد اعتقال وإهانة، علي الوردي (عالم اجتماع عراقي) تعرض للمضايقة وصودرت كتبه من الأسواق وسحبت من المكتبات وأجبر على قول يرضي السلطة. متعب السامرائي (أستاذ علم اجتماع) فصل من وظيفته في جامعة بغداد. عبد الوهاب البياتي والجواهري (الشاعران الكبيران) طردا وأسقطت عنهما الجنسية العراقية وكذلك الشاعر مصطفى جمال الدين وكذلك الروائي عبد الرحمن الربيعي وليس هذا سوى غيض من فيض الكرم الذي كانت تغدقه الحكومةالعراقية على المبدعين من مواطنيها وصلت إلى وضع الرياضيين الذين يعجزون عن نيل بطولة في صندوق خشبي على شكل تابوت سطحه مليء بالمسامير من مختلف الإحجام. ولا يستثنى قطر عربي من طرد مبدعيه، فالبيئة العربية هي بيئة طاردة للإبداع وبدرجة امتياز ، ولإيجاري البيئة العربية (الثقافية والفكرية والسياسية والدينية) بيئة أخرى في العالم في مجال الأحكام القاسية التي تصدرها على مبدعيها خاصة من يتجاسر منهم على منظومة المحرمات والممنوعات . وتتراوح الأحكام التي تصدرها هذه البيئة بين التكفير والتفجير (فاجر) والتفسيق (فاسق) والعمالة (عميل) والتجريم (مجرم) والتخوين، وما أسرع ما ينقل الأثير العربي عن المبدع الذي ينتهك قدسية السلطة الذي سرعان ما يحاط بهالة من الوصمات التي توجه إليه انه كافر ،

زنديق ، فاسق من الوجهة الدينية ، وهو أيضا عميل وخائن من الوجهة السياسية ، وكذلك فهو مجرم من الوجهة القضائية.في مصر القائمة تطول بالمبدعين المعاقبين نذكر منهم طه حسين، سيد القمني ونصرت حامد أبو زيد. أن الأمثلة كثيرة على من حاول التجاسر من المبدعين العرب فعاقبته البيئة التي يعيش فيها وهنا أسوق حالة عالم الاجتماع السوري(يوسف شلحت) المولود في حلب ١٩١٧، الهارب من بلاده في الأربعينات، المتوفى في باريس عام ١٩٧٧). لقد حاول شلحت التنظير في علم اجتماع الدين وكان أيضا اثنولوجي عربي مميز، من ابرز اعماله " نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني " وقد درس فيه الديانات الطوطمية واليهودية والنصرانية والإسلام معترفا أن المجتمع هو الذي ينتج الظواهر الدينية ويستهلكها، بمعنى أن هذه الظواهر هي خاضعة أيضا للدرس والتحليل والنقد، ولم يظهر هذا الكتاب لم يصدر في البيئة العربية إلا في عام ٢٠٠٣ على الرغم من ان الكتاب صدر في عام ١٩٤٦ أما إنتاجه المهم الآخر فهو " مدخل إلى علم اجتماع الإسلام " المنتج في عام ١٩٥٨ والمقدم للقارئ العربي فقط في عام ٢٠٠٣ بالإضافة إلى عشرات الدراسات الاثنولوجية والاثنوغرافية غاية في الأهمية وجميعها عن بيئته العربية التي طردته فظل مخلصا لها يكتب عنها وهو في باريس. يقول د. خليل احمد الخليل الذي حقق في بعض أعماله التي نشرت حديثا في بيروت ،(لقد تأخرنا قليلا في اكتشاف يوسف شلحت)[٢٨]، أننا امة لا تحترم الزمن ، عالم اجتماع يبدع منذ أربعينات القرن الماضي ولا نكتشفه إلا في عام ٢٠٠٣ ونقول أننا تأخرنا قليلا في اكتشافه . ستون عاماً بين شهرة الرجل عالمياً في عام ١٩٤٦ وبين اكتشافنا له في عام ٢٠٠٦، وثلاثون عاماً بين وفاته عام ١٩٧٧ وبين اكتشافنا العظيم له ، وإذا كان هذا القول يصدر من مختص في علم الاجتماع مثل د. خليل احمد فما بالنا بالآخرين الذين لازالوا يصنفون علم الاجتماع في خانة الآداب المسلية التي تعتمد السجع في صياغة جملها. لازالت المشكلة معقدة ولازال الجرح عميق، لازالت خطواتنا متعثرة ولازلنا في بداية الطريق، ولازالت المعوقات رصينة، عميقة، صلدة ، نافذة ، ثابتة ، متسلطة ، متغلغلة وفاعلة .

الهوامش

١- حسن الساعاتي ،علم الاجتماع في مصر ودوره في التغير الاجتماعي،حوليات كلية الاداب،المجلد الخامس، جامعة عين شمس،١٩٥٩،ص ١١٨-١٤١.

٢- اياد القزاز،انطباعات عامة حول علم الاجتماع في العراق ما بين ١٩٥٠-١٩٧٠،مجلة الخليج والجزيرة العربية،السنة ٤،العراق،١٩٨٠،ص ٥٥-٦٢.

٣- هادي صالح، آفاق علم الاجتماع في الوطن العربي،اطروحة دكتوراة غير منشورة،جامعة بغداد،١٩٩٠،ص ٣٩.

٤ -عبد الصمد الد يالمي ، مقالة بعنوان"ملامح تطور السوسيولوجيا في المغرب العربي،مجلة المستقبل العربي ، العدد٨١، ١٩٨٥،ص ٧١-٧٣.

٥- هادي صالح،نفس المصدر،ص ٤٠.

٦- هادي صالح ، نفس المصدر، ص ٤١.

٧- عبد الباسط عبد المعطي،اتجاهات نظرية في علم الاجتماع،سلسلة عالم المعرفة،الكويت،آب١٩٨٠، ص ٢٨٥.

٨- انتوني غدنز،علم الاجتماع،ترجمة فايز الصايغ،المنظمة العربية للترجمة،ط١،بيروت،تشرين اول ٢٠٠٥،ص ٨٢.

٩- E.B.Tylor:"primitive culture"London ,5th,1913,pp 3-4

١٠- انتوني غدنز ،نفس المصدر،ص ٨٣.

١١- جريدة الشرق الأوسط"جريدة العرب الدولية"مقالة بعنوان"٧٠ مليون امي في الوطن العربي" العدد ٩٥٥٧ في يناير٢٠٠٥.

١٢- المعهد العربي للتخطيط،الكويت،التدريب عبر شبكة الانترنيت.

١٣- المجموعة الاحصائية السنوية لليونسكو ، ١٩٩٩، ص ٧-١١.

١٤- المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة(ISECO) ، تقريرعبر شبكة الانترنيت.

١٥- جريدة الشرق الاوسط ، مصدر سابق.

١٦- نفس المصدر.

١٧- فردريك معتوق ، تطور الفكر السوسيولوجي العربي ، جروس برس،لبنلن،ص ١١٢- ١١٣.

١٨- علي شريعتي ، العودة الى الذات ، ترجمة د ابراهيم الدسوقي ، مؤسسة دار الكتاب الاسلامي ، ص ٨٨-٩٣ .

١٩- ف .كونستا نتينوف و ف.كيل،علم الاجتماع الماركسي،ترجمة سعد صمونيل،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،١٩٧٠،ص ٢٢.

٢٠-دينكن ميشيل،قاموس علم الاجتماع،ترجمة د احسان الحسن،وزارة الثقافة والاعلام،العراق،دار الرشيد للنشر،١٩٨٠،ص٣٣٤-٣٣٦.

٢١-علي شريعتي،مصدر سابق،ص ٤١.

٢٢-فردريك معتوق،مصدر سابق،ص ١٣٩.

٢٣-احمد مجدي حجازي،الفكر السوسيولوجي وازمة التنظير:رؤية نقدية لمنهجية الفكر العربي ،مجلة المستقبل العربي ،ص ٧٣.

٢٤- D.Bell.The end of Ideology on the exhaustion of political Ideas in fifties.Glence.1960,pp 15-18.

٢٥- س.ي.بوبوف، نقد علم الاجتماع البورجوازي المعاصر، ترجمة نزارعيون السود، داردمشق للطباعة والنشر،ص١٧١-١٧٢.

٢٦-ف كونستانتينوف وف.كيل، نفس المصدر السابق ،ص١٦-١٧.

٢٧-فردريك معتوق، نفس المصدر السابق، ص ١٣٥.

٢٨-يوسف شلحت، مدخل الى علم اجتماع الا سلام (من الارواحية الى الشمولية) ،تعريب خليل احمد خليل ،المؤ سسة العربية للدراسات و النشر،ط١،بيروت ، ٢٠٠٣،

المصادر العربية

١- حسن الساعاتي ،علم الاجتماع في مصر ودوره في التغير الاجتماعي،حوليات كلية الاداب،المجلد الخامس، جامعة عين شمس،١٩٥٩.
٢- اياد القزاز،انطباعات عامة حول علم الاجتماع في العراق ما بين ١٩٥٠-١٩٧٠،مجلة الخليج والجزيرة العربية،السنة ٤،العراق،١٩٨٠.
٣ - هادي صالح، آفاق علم الاجتماع في الوطن العربي،اطروحة دكتوراة غير منشورة،جامعة بغداد،١٩٩٠.
٤- عبد الصمد الد يالمي ،مقالة بعنوان"ملامح تطور السوسيولوجيا في المغرب العربي،مجلة المستقبل العربي،العدد،١٩٨٥.
٥- - عبد الباسط عبد المعطي،اتجاهات نظرية في علم الاجتماع،سلسلة عالم المعرفة،الكويت،آب١٩٨٠.
٦- انتوني غدنز،علم الاجتماع،ترجمة فايز الصايغ،ال- منظمة العربية للترجمة،ط١ ،بيروت،تشرين اول ٢٠٠٥.
٧- جريدة الشرق الأوسط"جريدة العرب الدولية"مقالة بعنوان"٧٠ مليون امي في الوطن العربي" العدد ٩٥٥٧ في يناير٢٠٠٥.
٨- المعهد العربي للتخطيط،الكويت،التدريب عبر شبكة الانترنيت.
٩- المجموعة الاحصائية السنوية لليونسكو،١٩٩٩، ص ٧- ١١
١٠- المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة(ISECO) ، تقريرعبر شبكة الانترنيت.
١١- فردريك معتوق ، تطور الفكر السوسيولوجي العربي ، جروس برس، لبنلن.
١٢- علي شريعتي ، العودة الى الذات ، ترجمة د ابراهيم الدسوقي ، مؤسسة دار الكتاب الاسلامي.
١٣-- ف .كونستا نتينوف و ف.كيل،علم الاجتماع الماركسي،ترجمة سعد صموئيل،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،١٩٧٠.
١٤- دينكن ميشيل،قاموس علم الاجتماع،ترجمة د احسان الحسن،وزارة الثقافة والاعلام،العراق،دار الرشيد للنشر،١٩٨٠.
١٥- احمد مجدي حجازي،الفكر السوسيولوجي وازمة التنظير:رؤية نقدية لمنهجية الفكر العربي ،مجلة المستقبل العربي.
١٦- يوسف شلحت، مدخل الى علم اجتماع الا سلام (من الارواحية الى الشمولية) ،تعريب خليل احمد خليل ،المؤ سسة العربية للدراسات والنشر،ط١،بيروت ، ٢٠٠٣.

المصادر الانكليزية

1.E.B.Tylor:"primitiveculture"London, 1913 5th
2-D.Bell.The end of Ideology on the exhaustion of political Ideas in fifties.Glence.1960.